ابنتي، ابني...
لا تحمني من فضلك

د. سرور قاروني
أخصائية واستشارية ببرنامج «كن حراً» لحماية الأطفال من الاعتداء والاهمال

بسم الله الرحمن الرحيم

ISBN 978-99901-712-1-1

رقم الإيداع في المكتبات العامة: د.ع2010/8856م

ابنتي، ابني... لا تحمني من فضلك

هذا الكتاب...

يناقش هذا الكتاب الأدوار المبطّنة التي يتبنّاها الأبناء في الأسرة، وهو موضوع مهم وغامض في آن، إذ يصعب على الآباء الالتفات إليه ما لم يكونوا على وعي ودراية به. وهو موجّه للآباء، ولكل من تقع على عاتقه تربية الأبناء وتنشئتهم. ومن يريد أن يكون مبادرًا يتقدم خطوة إلى الأمام لتكون له يد في صنع نتائج طيبة مرجوّة في حياة الأبناء. فهناك فرق كبير بين أن يقرر الأبوان أن يبنيا في أبنائهما مقومات الشخصية المتزنة السليمة، وبين أن يتركا الأمور لتأخذ مجراها كما تمضي بهم الظروف وأحداث الحياة، لتترك أثرها في نفوس الأبناء وتنعكس سلبًا على قراراتهم وشخصياتهم وسلوكياتهم، ليقوما بعد ذلك بدور المقيّم الذي ينتقد شخصية الأبناء وسلوكياتهم، ويبدأ بعدها بإلقاء الملامة على نفسيهما أو على الآخرين أو على الظروف.

يتضمن هذا الكتاب أمورًا دقيقة قد يكون بعضها صادمًا للقارئ، لذا فإنّه من المهم التوغل في مواضيعه من باب المحبة والاهتمام للأبناء، وليس من باب الغضب والبحث عن التقصير والمقصّر. فهناك تحديات في كل أسرة، ولا يوجد من هو كامل دون أخطاء، وتبنّي أسلوب إلقاء الملامة لا يخلق سوى ثقلٍ إضافي في القلب، وانعكاسٍ سلبي في العلاقات. ووحده القرار الواعي المؤدّي للتغير الإيجابي الذي يدور حول حفظ وتعزيز الرابط الأسري ما أمكن، وحده هو الطريق الأنجع الذي يساعد ويرتقي بالأبناء على المدى القريب في مراحل طفولتهم ومراهقتهم، وعلى المدى البعيد عندما يكبرون وينطلقون في حياتهم. فمستقبلهم المهني والاجتماعي والأسري وبصمتهم الكونية هي انعكاس للحياة التي يمنحها لهم أبواهم، أو الأفراد الذين تلقى على عاتقهم المسؤولية المباشرة لتنشئتهم.

سترافق رحلتنا هذه أسرة كريم وليلى، والتي تعيش خلافات أسرية أدّت بأبنائها لتبنّي أدوارًا مبطنة تركت آثارًا عميقة على شخصياتهم وعلاقاتهم بأبويهما، وعلى أنماط حياتهم وتعاملهم وموقعهم في الأسرة والمدرسة والمجتمع.

الأدوار ليست هي الأفعال...

هناك فرق أساسي بين الدور والفعل. فيمكن تعريف الفعل بشكل مبسط على أنّه أيّ عمل يقوم به الفرد بهدف الحصول على نتيجة يرغب بها، أو الابتعاد عن وضع لا يرغب فيه.

وأمّا الدور فهو يتألّف من سلسلة من الأفعال في مواقف مختلفة يقوم بها الفرد من باب المسؤولية. فمن الممكن أن تكون تلك المسؤولية ناجمة عن قرار اتخذه بقصد ورضا، ومن الممكن أيضًا أن تكون قد أنيطت به من طرف آخر بناء على وضع شخصي أو مهني أو اجتماعي أو عرفي.

فيما يلي بعض الفروقات بين الفعل والدور:

الفعل ليس به توقع، بينما الدور كذلك إذ هو جزء من صورة أكبر.

الفعل ينتهي بعد القيام به، بينما يبقى الدور غير مكتمل وهناك دائمًا ما يمكن القيام به لإكماله

الدور له نمط معيّن، بينما الفعل ليس كذلك

الدور نابع من مسؤولية، بينما يمكن أن يكون الفعل نابعًا من مسؤولية أو لا يكون

الأدوار الظاهرة والمبطنة في الأسرة...

هناك أدوار ظاهرة يتبنّاها أفراد الأسرة وهناك أدوار مبطنّة. فالأدوار الظاهرة تشمل العامة والكبيرة والبديهية كدور الأب في تلبية الاحتياجات المادية لأسرته، ودور الأم في رعاية أبنائها، ودور الأخ الأكبر في تدريس أخيه الصغير. وتشمل أيضًا الأدوار الصغيرة وغير البديهية كالأدوار المحددة لكل فرد من أفراد الأسرة للمساهمة في إدارة الشؤون المنزلية كرمي القمامة وشراء الخبز وإعداد المائدة وتنظيف الصحون.

وهناك أدوار مبطنة ليست واضحة وهي في الغالب ترتبط بالجانب العاطفي. ومن الأمثلة الدارجة هي دور الجدة في المنزل لتخفيف الوطأة عن الحفيد عند غضب أحد والديه عليه، ودور الأب في منح الأمان لأبنائه عندما يصابون بخيبة أمل من أنفسهم أو من آخرين، ودور الأم في تحصيل موافقة الأب عندما يريد أبناؤه شيئًا ولكنّهم يترددون في طلبه منه خشية غضبه أو رفضه. فهذه النماذج من الأدوار المبطنة تكون في الغالب إيجابية ولا تتسبب بضرر يذكر للأسرة. ولكن هناك أدوارًا مبطنة تحمل خطورة، خاصة تلك التي يتبنّاها الأبناء والتي تشكل ضررًا جسيمًا عليهم وعلى الأسرة والمجتمع، فهي غالبًا ما تترك أثرًا في نفوسهم يتحملون ويلاته على المدى القريب والبعيد، إذ أنّ قرار الأبناء تبنّي تلك الأدوار وتطبيقها يأتي بعد عملية تفكير واستنتاج عميقة مع أنفسهم تتداخل فيها قناعات وقيم ومعاني.

كما إنّ الأدوار الظاهرة عادة ما تكون واضحة، ومن الوارد أن يتم الحديث عنها والنقاش حولها وتقييمها مع الأطراف المختلفة من ذوي العلاقة، بل وربّما الجدال حول جدواها ومن يجب عليه تبنّيها. بينما للأدوار المبطنة وضع مختلف وذلك للأسباب الثلاثة التالية:

- إنّ الأدوار المبطنة هي نتاج تفاعلات داخلية ومشادات عاطفية للفرد مع نفسه، فيتبنّاها الشخص ويكون للاوعيه دور أساسي في ذلك، مما يجعل الكثير من تفاصيلها وحيثياتها وتبعاتها غير واضحة حتى لنفسه.
- من السهل الخلط بين الأدوار والأفعال، فيتم التعامل مع الأدوار على أنّها أفعال، وتكون ردود الأفعال بناء على ذلك الأساس أيضًا.
- لا تصبح الأدوار المبطنّة موضعًا للحديث عادة، وإن أصبحت فهي تأتي من باب مناقشة الحدث وليس الدور.

أسباب تبنّى الأبناء للأدوار المبطنة في الأسرة...

الإنسان ومنذ نعومة أظافره يعلم بأنّ لديه قوّة وقدرة على إيجاد التغيير، والتغيير بالنسبة إليه هو تحويل حال إلى حال آخر أفضل، والأبناء ليسوا استثناءً من ذلك. فالأبناء يحاولون استجماع ما يمتلكون من قدرات ومقومات وخيال وحيلة من أجل أن يساهموا في التغيير في الأسرة عندما يؤمنون بضرورته.

وتكمن المشكلة هنا بأنّ الأبناء يعتبرون أنفسهم مسئولين بشكل أو بآخر عن المشكلات التي تقع في المنزل، خاصة تلك التي تكون بين والديهم. وهم -أي الأبناء- إمّا أن يعتبروا أنفسهم سببًا في وقوع تلك المشكلة، أو مساهمين فيها بسبب عدم قيامهم بما من شأنه إيقافها والوقاية منها قبل حدوثها، أو مقصرين بسبب عدم قدرتهم على حل المشكلة حين وقوعها. ولهذا التفكير تأثير سلبي كبير عليهم، إذ إنّه مصاحب للشعور بالذنب وبالعجز معًا. وهما شعوران من أصعب المشاعر التي تراود أيّ إنسان، واجتماعهما معًا يكون مؤذيًا للأبناء بشكل استثنائي.

ليس بالضرورة أن تكون الخلافات على هيئة عنف وصراخ ليتبنّى الأبناء أدوارًا مبطنة...

هناك معارك ظاهرة بين الأزواج تكون على هيئة شجار وصراخ وعنف جسدي، وهناك أخرى خفية تظهر على هيئة غمزات وكلمات جارحة مبطنة. وكلاهما مؤذي للأبناء ويمكن أن تؤدي بهم لتبني أدوارٍ مبطنة. وتلك المعارك ليست حصرًا على الأزواج في الأسرة، فأحيانًا تكون بين طرفين بالغين ممن لديهم قوّة ومنزلة في المنزل كأن تكون بين أحد الوالدين وبين الجد أو الجدّة. ويمكن للأبناء تبني أدوارٍ مبطنة في تلك الحالات أيضًا بحسب تقديرهم لحجم المشكلة وتبعاتها.

من الأهمية بمكان أن يتفهم الآباء الأدوار التي يتبنّاها أبناؤهم...

للأدوار التي يتبنّاها الأبناء علاقة بنمط تفكيرهم، وهي تحدد تفاعلاتهم مع الأحداث وتعاملهم مع أفراد الأسرة بشكل عام ومع أبويهم بشكل خاص. وينتج ذلك أساسًا من تحميل الأبناء أنفسهم مسؤولية إسعاد الأسرة وحماية أفرادها الضعفاء بحسب تصنيفهم. وتلك المسؤولية بطبيعة الحال ليست متناسبة مع أعمارهم ولا مع إدراكهم وقدراتهم. هذا بالإضافة إلى أنّ الأساليب التي يستخدمها الأبناء لتطبيق تلك الأدوار تجلب عليهم الضرر بشكل كبير. فهي تصوّر لهم واقعًا غير حقيقي، وبناء على ذلك التصور يتوقعون من أنفسهم أن تكون لديهم القدرة على الوصول لحلول ونتائج معقده يريدون منها إحداث تغيير في تصرفات الآخرين وقرارتهم، وهو ما لا يمكنهم التحكم فيه بشكل واقعي.

إنّ رحلتك مع هذا الكتاب تساعدك على معرفة الأدوار المبطنة التي من الممكن أن يتبنّاها الأبناء، وتفتح لك أبوابًا لتقدير أهميتها وتأثيراتها. كما تمنحك سبلًا وأساليب عملية يمكنك اتخاذها لمساعدة أبنائك للتحرر من قيود تلك الأدوار والوقاية من الضربات التي توجهها نحو شخصيتهم وحياتهم الحالية والمستقبلية.

يبدأ الأبناء بتبنّي الأدوار المبطنة في سنين مبكرة...

إنّ كل شيء يتعلق بالأدوار يبدأ من فكرة يحركها واقع مؤلم بالنسبة للأبناء. ويمكن لتلك الفكرة أن تبدأ من السن الذي يستطيع فيه الأبناء إدراك نوعية علاقة أمّهم بأبيهم، واستنتاجهم بأنّ من شأن تلك العلاقة أن تصنع الفرق الجوهري في حياتهم وحياة إخوتهم وأفراد الأسرة الآخرين، ولمس حقيقة أنّ كل مشكلة بين والديهم تؤثر بشكل مباشر على الجو العام للمنزل، وعلى العلاقات ونمط الأحاديث المتبادلة بين أفرادها.

إنّ الأبناء في أيّ سنّ كانوا، نادرًا ما يعترفون لأنفسهم بأنّهم لا يعلمون طبيعة المشكلات والخلافات بين أبويهم. فهم...

يرون المعطيات التي أمامهم؛

ويسمعون الحديث الذي يدور بين والديهم بشكل علني؛

ويتأملون الحديث الذي يصل إلى آذانهم من استراق السمع وراء الأبواب المغلقة؛

ويضيفون إليها تفسيرهم وفهمهم لما يستمعون إليه من الأحاديث التي تتعلق بأسرهم؛

ويربطون بها ما يصل لعلمهم عن حال أسر تعيش مشكلات مشابهة لهم؛

فيقومون بربط كل ذلك معًا وتحليله؛

ومن ثم يرسمون بناء عليه صورة في أذهانهم عن المشكلة الموجودة بين أبويهم وطبيعتها وحدتها؛

ويحددون الطرف القوي والطرف الضعيف؛ ويصنفون الأطراف بين مخطئ ومصيب، وظالم ومظلوم؛

ويحيكون في مخيلتهم سيناريوهات مستقبلية لما يمكن أن تؤول إليه الأمور في أسرتهم؛

وبعدها يشمرون عن أذرعتهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه بتبني دورٍ من الأدوار المبطنة...

ومن المهم الأخذ بالاعتبار بأنّ الإدراك الاجتماعي عند الأبناء لا يكون بالضرورة مرتبطًا بأعمارهم، وهو يختلف عن الإدراك اللغوي والحسي والرياضي. فقد يبدو أحد الأبناء صغيرًا، أو ضعيفًا في مجال أساسي كالتحصيل الدراسي مثلًا، ولكن في ذات الوقت يكون لديه إدراك عاطفي واجتماعي رفيع وأكبر مما هو متوقع منه أو ما يبدو عليه.

وبما أنّ...

- المعلومات التي لدى الأبناء غير كاملة، وأنّ هناك أجزاء من المشكلة لا علم لهم بها؛
- هناك أمور تراكمية بين الزوجين مؤثرة في نشوب الخلاف واستمراره، ولكن لا تبدو لها علاقة مباشرة بالمشكلة الحالية وليس للأبناء علم بها؛
- من الوارد جدًا أن يحمل الأبوان مشاعر مختلفة ومختلطة تعمل كوقود لإشعال الشجار في المنزل يكون منطلقها خارج نطاق الأسرة كبيئة العمل، والعلاقات في الأسرة الممتدة، والروابط الاجتماعية؛
- للأبناء قدرة على ربط الأمور بأنفسهم والسعي للعثور على جوانب تقصير يقومون من خلالها بإلقاء الملامة على أنفسهم، ويستنتجون معها بأنّهم سبب للألم الذي يكابده الطرف الأضعف في المشكلة؛

فيستنتج الأبناء بناء على الأمور السابقة بأنّ عليهم القيام بعمل ما لتصحيح الوضع الحالي، وتقليص الضرر الذي من الممكن أن ينتج إذا ما بقي الوضع على ما هو عليه.

يتبنّى الأبناء إستراتيجيات للتفاعل مع الأوضاع الصعبة...

يتبنّى الأبناء في الغالب إستراتيجية للتفاعل والتعامل مع الأوضاع الصعبة والمشكلات التي تدور في أسرهم خاصة تلك التي تكون بين والديهم. فمن الممكن أن تكون تلك الإستراتيجية هي عبارة عن الأدوار المبطنّة التي كثيرًا ما يتبنّاها الأبناء. سنناقش هنا أهم أربعة أدوار مبطنة يتبنّاها الأبناء وأكثرها شيوعًا، ولكنّها لا تعبّر عن جميع الأدوار المحتملة الأقل شيوعًا والتي من الممكن أن يختارها الأبناء كدور اللامبالي ودور المنتقم.

العوامل التي تؤثر على اختيار الأبناء لأدوارهم المبطنة...

أهم العوامل التي تؤثر على تبنّي الأبناء للأدوار المبطنة هي تقييمهم للوضع الحالي في أسرهم، وسعيهم الحثيث للعثور على الحلقة المفقودة التي يستنتجون بحسب فهمهم بأنّ غيابها هو الذي يتسبب بالمشكلات ويزيد الوضع سوءًا. فتقييم الوضع الحالي بالنسبة للأبناء يكون من عدة نواح منها:

- المزاج العام للأسرة.
- نسبة الشجارات والخصام ومدته.
- الأحاديث والطرق المختلفة للتعبير عن المشاعر السلبية.
- الحال الذي يعيشه كل فرد من أفراد الأسرة من الذين يعتقدون بأنّهم تحت طائلة الظلم والأذى والاستضعاف.

إنّ أهم دافع للأبناء لتبنّي أدوارٍ مبطنة في المنزل هو مشاهدتهم للخلافات التي تقع بين والديهم، وما يلاحظون ويسمعون ويستنتجون في ذلك الإطار. فذلك بدوره يحفّز التفكير والتخيل لديهم لخلق سيناريوهات متنوعة تنم عن مقدار المعاناة التي تكابدها الأسرة والطرف الأضعف فيها، وكذلك الاحتمالات السيئة التي من الممكن أن تؤول إليها الأمور مستقبلًا.

فهناك أسرة تعيش المشكلات، وأسرة لديها مشكلات. والفرق بينهما شاسع:

في الأسرة التي تعيش المشكلات

تتم مناقشة المشكلات والتبعات الناجمة عنها بناء على الانفعال الموجود في تلك اللحظة، حتى ولو كان ثمن ذلك الانفعال كسر الطرف الآخر وإثبات تقصيره.

ليس مهمًا إن كان الأبناء موجودين يشاهدون ويسمعون الكلام أو الشجار أم لم يكونوا.

الصراخ والخصام والعبوس هي طرق مألوفة للتعبير عن المواقف والمشاعر حين الشجار وبعده.

الحديث المبطّن الملغوم بالملامة والإهانة والسلبية هو النمط الاعتيادي خلال تواصل أفراد الأسرة مع بعضهم البعض.

لا يتحمل أحد مسؤولية الخطأ، والملامة ملقاة دائمًا على الآخر.

شعور الضحية متجذر في الأفراد.

الدافع وراء التواصل المنطوق وغير المنطوق هو إلقاء الملامة على الآخر واعتباره مقصرًا.

في الأسرة التي لديها مشكلات مزمنة

تتم مناقشة المشكلات والتبعات الناجمة عنها من أجل الحصول على حلول دون تهجم على الطرف الآخر.

يتم التأكد من أنّ الأطراف ذوي العلاقة هم فقط الموجودون والمطلعون على الحوار، والذي يستثني الأبناء في كل الأحوال.

الحديث الهادئ والاحترام موجود أثناء طرح المشكلة ومناقشتها والتعبير عن المواقف والمشاعر الناتجة عنها، ويبقى الانشراح موجودًا بنسبة ما أثناء طرح المشكلة وبعدها.

الكلمات واضحة ليس بها تجريح من أيّ نوع كان، وهي تحمل احترامًا للآخر وإن حمّلته مسؤوليه خطأ ما.

هناك نسبة من تحمل مسؤوليته الأخطاء من قبل الأفراد، ولغة الملامة تكون نادرة.

من المحتمل أن يشعر الأفراد بأنّهم قد تعرضوا للظلم من الطرف الآخر، ولكنّهم لا يعيشون شعور الضحية المسكينة المستهدفة.

الدافع وراء التواصل هو الإصلاح واحترام الآخر والعمل على عدم تكرار المشكلة دون أن يشعر طرف من الأطراف بالانكسار.

البوصلة التي توجّه الأبناء نحو تبنّي الأدوار...

يكاد لا يوجد ما هو أكثر تأثيرًا في بناء شخصية الأبناء من علاقة الأبوين مع بعضهما البعض. فكلما كانت العلاقة بين الزوجين مبنيّة على المحبة والاحترام، انعكس ذلك على تعاملهم مع أبنائهم وتربيتهم لهم وردود أفعالهم تجاه الأخطاء التي تصدر من أبنائهم في سنوات حياتهم المختلفة. وتلك العلاقة تعلّم أبناءهم الاتزان والإنصاف والاحترام والتعامل السليم مع المشكلات عمليًا وليس بالقول والنصيحة فقط.

فمن الوارد جدًا أن تكون هناك مشكلات حقيقية بين الوالدين، وقد يصل بهما الحال لأن يقررا بأنّ استمرار الحياة المشتركة بينهما باتت أمرًا صعبًا. ولكن ذلك بحد ذاته لا يشكل أصل المشكلة بالنسبة لأبنائهم. فالأبناء لا يتبنون أدوارًا مبطنة بسبب وجود المشاكل في أسرهم، بل بسبب الأذى الذي يعيشه أفراد الأسرة، وشعورهم بعجز آبائهم وعدم قدرتهم على تصحيح الوضع وإيجاد بيئة آمنة هادئة في المنزل.

فمهما كانت المشكلات بين الوالدين كبيرة، إلا أنّ الضرر على الأبناء لن يكون كبيرًا في حال كانت العلاقة بين والديهم مبنية على الاحترام المتبادل والإنصاف، وقيام كل منهما ببث الأمان في قلوب الأبناء من خلال تعزيز قدرتهما على التعاون معًا على إدارة شؤون أبنائهما. فيتيقنوا بأنّ ما يحصل بين أبويهم هي مشكلات زوجية وليست مشكلات في الأبوّة والأمومة، وبأنّه مهما بلغ بأبويهم الاختلاف والخلاف، إلا أنّهما متفقان على ما فيه مصلحة أبنائهما، وبأنّ سعادتهم هو مبلغهما وأكبر أمنياتهما.

الأدوار المبطّنة الأربعة مختلفة اختلافًا جذريًا...

هناك أربعة أدوار مبطنة رئيسية من الممكن أن يتبناها الأبناء وهي الأهم والأكثر شيوعًا. ولكل من تلك الأدوار خط طيف يتراوح من خفيف إلى شديد، ويمكن للطفل أو المراهق أن يكون في أي نقطة من خط ذلك الطيف. فعندما يكون في نهاية الجانب الخفيف منه، سيكون تفاعله مع الدور أيضًا خفيفًا وتأثيراته عليه خفيفة نسبيًا أيضًا. وعندما يكون في نهاية الجانب الآخر من خط الطيف ويكون تفاعله مع الدور شديدًا، ستكون تأثيراته وتبعاته وانعكاساته على المدى القريب والبعيد شديدة أيضًا.

فيما يلي الأدوار الأربعة بصورة مختصرة وسيلي شرحها بالتفصيل مدعمًا بالأمثلة:

الطفل المدافع البطل: وهو الطفل الذي يتبنى الدفاع عن شخص ضعيف في الأسرة من خلال وقوفه ضد آخر يعتقد بأنّه المتسبب بالأذى.

الطفل المشاكس كبش الفداء: وهو الذي يحاول تحويل الانتباه من المشكلات الموجودة بين والديه من خلال خلق مشكلات أخرى يكون هو محورها.

الطفل المضحك الحبوب: وهو الذي يعمل على تغيير الأجواء من سلبية مزعجة إلى إيجابية مرحة، وهو يمنح ذلك أولوية حتى ولو كانت كرامته هي الثمن الذي يدفعه من أجل ذلك.

الطفل المهذب غير المرئي: وهو الذي لا يريد أن يضيف عبئًا على أسرته، فيبتعد عن لفت الانتباه بجميع الصور الممكنة.

لا يوجد اثنان يطبقان ذات الدور بذات الطريقة...

لا يوجد طفلان يتشابهان تمامًا في كيفية تبنيهما للدور ذاته، وإن كانت الصورة العامة للمفاهيم التي يتبنونها فيها الكثير من التشابه. فهناك الكثير من الاختلافات الممكنة بين طفل وآخر، مضافة عليه العوامل التالية:

- هناك خط طيف واسع للدرجة التي يطبق فيها الأبناء الدور الذي يتبنونه. فهناك من يكتفي بتخيل نفسه وهو يقوم بأفعال تتعلق بذلك الدور في لحظات حدوث الأزمات، وهناك من يقوم بأفعال حادة وقوية وفي حالة تأهب دائم حتى ولو لم تكن هناك مشكلة أو أزمة في تلك اللحظة، ولكن غالبية الأبناء يتدرجون بين الحالتين بحيث لا يكتفون بالتخيل ولا هم يقومون بأفعال شديدة الحدّة.

- لشخصية كل طفل ومهاراته وميوله وطبيعة علاقاته مع أفراد الأسرة وخارجها تأثير مباشر في الكيفية التي يقوم فيها بتفعيل الدور الذي تبنّاه. فلا يوجد طفلان يقومان بذات الدور لذات المشكلة بذات الكيفية.

- تشكل ردود الأفعال التي يحصل عليها الأبناء من آبائهم والآخرين في المنزل وخارجه أرضية ينطلقون منها. فهم يحددون على أساسها الكيفية التي يقومون فيها بدورهم مستقبلًا وذلك من خلال قيامهم بعملية تعديل وتغيير مستمرة على نمط تفاعلهم مع الخلافات التي تحصل في الأسرة ونمط تطبيقهم لأدوارهم.

تختلف تفسيرات الأبناء الذين يعاصرون ذات الأزمات..

يتبنّى الأبناء أدوارًا مختلفة في الأسرة بحسب شخصياتهم ونظرتهم للأمور وكيفية تحليلهم لها، وليس بحسب نوعية المشكلة الموجودة. فأبناء الأسرة الواحدة يعيشون حالًا واحدًا ومشاكل أساسية مشتركة، ولكنّهم يختلفون في الكيفية التي يفسرون فيها تلك المشكلات والطريقة التي يتفاعلون معها.

ففي الأسرة التي يرتفع فيها صوت الأب على الأم، قد يبدو الأب وكأنّه الظالم المهيمن، بينما تبدو الأم ضعيفة لا حول لها. فمن الممكن أن يختار كل واحد من الأبناء أحد التفاسير التالية وبناء عليه يختار دورًا مختلفًا من الأدوار المبطنة:

- يركز أحد الأبناء على الظلم الذي يُمارس ضد أمّه والألم الذي تتكبده.
- يفسر آخر المشكلة على أنّها تركيز انتباه أبيه على ما تقوم به أمّه، وبأنّ تشتيت انتباه أبيه وتركيزه على أمّه وما تفعل من شأنه أن يخفف وطأة الخلافات.
- يفسر أخوهما الذي يعتبر بأنّ سبب المشكلات هو حالة المنزل السلبية والكئيبة والحزينة.
- ويأس آخر من الأسرة ويبتعد ويكتفي بالحد الأدنى مما يمكن أن يحصل عليه ليواصل حياته اعتقادًا منه بأنّ والديه من الهوان بحيث لا يمكنهما تحمل مشكلة أخرى يكون هو سببها، إذ من وجهة نظره هما لا يعرفان كيف يتصرفان بما لديهم من تحديات فكيف بإضافة مشكلة أخرى لهما.

فهؤلاء الأبناء يعيشون ذات الأجواء ويعاينون ذات الأحداث في الأسرة، ولكن تختلف تحليلاتهم وتفسيراتهم وقراراتهم لما عليهم فعله تجاه ما يعيشون، وعليه تختلف الأدوار التي يتبنون.

من المهم الانتباه عند التفاعل مع موضوع الأدوار...

- التعميم والتصنيف هما عمليتان خطيرتان عندما يتم تطبيقهما في التعامل مع الأبناء. فمن المهم الأخذ بالاعتبار بأنّ ما يتم طرحه هنا هي إشارات تساعد الآباء على معرفة الجوانب التي تقلق أبناءهم وتؤذيهم، والتي من شأنها أن تؤثر سلبًا على شخصياتهم وتحصيلهم الدراسي وعلاقاتهم الحالية والمستقبلية، وهي ليست وصمات للأبناء أو صفات سيئة فيهم.

- تبنّي الأبناء لأدوار في الأسرة هو فعل نابع من شعورهم بالمسؤولية ومحبتهم لها، فمن وجهة نظرهم هذا نوع من المساهمة من جانبهم لحل المعضلات وتحسين أوضاع الأسرة، وهم في الغالب لا يدركون عمق ما يعنيه ذلك لهم ولأسرهم على المدى القريب والبعيد.

- لا يعرف الأبناء بأنّ ما يقومون به يعتبر دورًا. فهم يمضون فيه بناء على عمليات تفكير يستخدمون فيها معلومات يجمعونها قد يكون بعضها صحيحًا وبعضها مغلوطًا، وبعضها ناقصًا وبعضها الآخر غير مفهوم. ولكنّهم في ذلك الوقت يعتقدون بأنّ كل المعلومات التي لديهم هي معلومات صحيحة ويتعاملون معها على ذلك الأساس.

- الأبناء الذين يتخذون أدوارًا في الأسرة هم أبناء طيبون مهما بدا بأنّ ما يقومون به سيئ أو محرج، فهم يريدون الخير للجميع ولكن ذلك هو مبلغهم من العلم.

- إنّ كل ما يتم مناقشته هنا هو من أجل المعرفة المؤدية إلى الحلول المبنيّة على المحبة والتشاعر والاحترام والتصحيح اللطيف، وهو ليس من أجل تعزيز الشعور بالذنب أو الغضب مما آلت إليه الأمور، أو إلقاء الملامة على أطراف مختلفة. فمن شأن التعامل غير الصحيح مع هذا الموضوع تعقيد الوضع السيء والصعب الذي يعيشه الأبناء ويحيط بالأسرة. فالسر في شخصية الأبناء المتزنة والسليمة يكمن في علاقة الوالدين معًا، وما يترتب على تلك العلاقة من تبعات، لذا من المهم التأكد من أن تصب كل خطوة عند التفاعل مع موضوع الأدوار في صالح ترميم علاقة الأبوين معًا وليس العكس.

- قد يتبنّى الأبناء أدوارًا مبطنة في الإسرة لأسباب أخرى، ولكن التركيز هنا سيكون على الأسباب الأساسية التي عادة ما يتبنّى الأبناء تلك الأدوار من أجلها، والتي تصب في أصلها في المساهمة في تحسين وضع الأسرة.

منحى مناقشة موضوع الأدوار المبطنة...

ستأخذ المناقشة منحى توضيح كل دور على حدة، فيتم شرح الدور والغرض منه والأسباب التي تؤدي بالأبناء لاختياره وتأثيراته عليهم وعلى الأسرة على مستويات مختلفة، هذا بالإضافة للأمور التي تُبقي ذلك الدور حيًا متحركًا وما يمكن للآباء فعله تجاهه. ويمضي بموازاة ذلك حالة أسرية ندخل معها في تفاصيل تبنّي أبنائها للأدوار الأربعة.

لكريم وليلى عائلة صغيرة تتكوّن من خمسة أبناء ريما ١٥ عاماً، وكمال ١٤، وأمير ١١، ولينا ٨، وأمل ٣. يمتهن الأب «كريم» الأعمال الحرّة التي دخل عالمها بعدما أغلقت الشركة التي كان يعمل فيها. تعمل الأم «ليلى» في وظيفة حكومية منذ سنوات طويلة. لم يكن كريم وليلى على وفاق منذ زواجهما، ولكنّ نسبة احترامهما لبعضهما كانت أفضل بكثير مما هي عليه الآن.

تراكمت المشكلات بين كريم وليلى عبر السنين، وازدادت بعدما فقد كمال دخله الثابت وأصبح عصبي المزاج أكثر مما كان عليه. وهو يعزو سبب ذلك لفقدانه دخله الثابت واضطراره للعمل ساعات طويلة دون أن يرى التقدير اللازم من زوجته. في حين فاض الكيل بليلى حسب تعبيرها، فمن وجهة نظرها زوجها كان مهملًا في حقها وحق أولادها وأصبح الآن أكثر إهمالًا، هذا بالإضافة لمنّه المستمر عليهم بأنّه يضطر للعمل والتعب من أجلهم. ازدادت الخلافات بين كريم وليلى بعد حملِ ليلى بأمل، والذي تعتقد بأنّه أدّى لمضاعفة مسؤولياتها ومشكلاتها الصحية دون أن يوفر لها زوجها أي نوع من المساعدة والمساندة، بينما يعزي كريم سبب زيادة الخلافات لانشغال زوجته عنه وإهمالها لأبسط احتياجاته.

النوع الأوّل من الأدوار المبطّنة: الطفل المدافع البطل

ينشغل أمير ذو الـ ١١ عامًا بدروسه وألعابه طوال الوقت، ومع ذلك فهو دائم التربّص لأبيه عند تواجده في المنزل. ففي حقيقة الأمر، هو لا يحب حضور أبيه كثيرًا. تتشكى أمّه من أبيه وتلقي عليه باللائمة في أمور كثيرة، ولكن أمير يعتبر كل ذلك قابلًا للتحمل طالما كان أبوه خارج المنزل، فهو حينها يكون حرًا مرتاحًا، وما أن يدخل أبوه المنزل حتى يبقى حائمًا بالقرب من والدته لكي يستطيع الوصول إليها سريعًا عندما يبدأ الشجار.

لا يهتم أمير بنوع الخلاف الذي يقع بين والديه، ولا يحمل نفسه عناء التأكد إذا ما كان الطرف المقصر والمخطئ هو أباه فعلًا أو ربّما كانت أمّه. فبحسب تعبيره: «أنّ كل ما يعرف هو أنّ المنزل يكون هادئًا وأمّه مشغولة بأعمالها بسلام حتى يأتي أبوه ويفتعل مشكلة ليصرخ بعدها في وجه أمّه ويجرحها بكلمات مؤذية، وأنّ أمّه تحاول أن ترد على أبيه بصوت لا يكاد يكون مسموعًا من الكبت الموجود في صدرها، ولكنّها بعد ذلك تبدأ بالصراخ معه. وأنّه يستطيع أن يرى الخوف في عين أمّه والشرار في عيني أبيه». فصحيح أنّ أمير لم ير أبوه يضرب أمّه، ولكنّه سمع مرارًا أصوات صراخ وضرب على الأثاث عندما كان أبواه في الغرفة معًا. كما ولاحظ أيضًا ما يحصل بعد ذلك حين يفتح أبوه الباب بقوّة ويخرج بوجه غاضب، في حين تملأ الدموع وجه أمّه، وتصرخ أخته الصغيرة خوفًا.

عادة ما يختار الطفل هذا دور المدافع البطل عندما يفسر الوضع القائم في الأسرة على أنّه يحمل ظلمًا يمارسه طرف قوى (عادة ما يكون الأب من وجهة نظر الطفل)، على طرف ضعيف (عادة ما تكون الأم من وجهة نظر الطفل). فيختار القيام بدور الحماية لأمّه من أبيه. وهذه الحماية تتجسد بأشكال مختلفة قد تكون لفظية أو جسدية أو حتى فكريّة. فمن الممكن أن يقف الطفل المدافع البطل بين أمّه وأبيه عند حدوث الشجار محاولًا حماية أمّه، وأن يقول لأبيه بما معناه بأنّه لن يسمح له بإيذاء أمّه، وفي حالات قد يصل الطفل لمرحلة يقرر رفع يده على أبيه دفاعًا عن أمّه.

إنّه من المهم الانتباه بأنّ الطفل الذي يأخذ دور المدافع البطل لا يهتم كثيرًا لتفاصيل الخلافات وتحليلها لكي يستخلص من هو المقصر ومن هو صاحب الحق. فهو يرى الأمور بين حدين فاصلين: أحدهما أبيض وآخر أسود، ظالم ومظلوم، قوي وضعيف. ويستنتج بأنّه لو ترك الوضع على ما هو عليه دون تدخل منه، فإنّه سيكون هناك ضرر على المظلوم (الأم) وسوف يتمادى الظالم ولا يجد من يوقفه عند حدّه. فيجب عليه التأكد من أنّه يكون ذلك الشخص الذي يوقف الظالم ويحمي المظلوم ويصحح الوضع المعوج في الأسرة.

وفي قلوبهم حاجة يلبونها من خلال تبنيهم لهذا الدور...

هناك أفكار مختلفة تدور في ذهن أمير بما يتعلق بالدور الذي تبنّاه مفادها:

- لا يمكن أن أسمح لأبي بأن يؤذي أمّي وأختي مرّة أخرى.
- يعتقد أبي بأنّه رجل البيت وله الصلاحية والقدرة لأن يفعل ما يشاء، ولكن لن أسمح له لأن يتمادى وسأقف في وجهه.
- أنا لست صغيرًا وأستطيع أن أحمي أمي وأختي.

يختار الأبناء دور الطفل المدافع البطل من أجل حماية من يحبون وأخذ خطوة عملية لتقليص الضرر الوارد عليهم. فالحاجة التي يلبونها لها جانبان:

الأول: هي من أجل من يحبون؛

والثاني: هي من أجل إثبات ذواتهم بأنهم أشخاص يمكن الاعتماد عليهم، وبأنّهم قد كبروا وأصبحوا أقوياء ولديهم رأي وأثر، ويستطيعون إيجاد فرق وتغيير.

يبدأ الطفل المدافع البطل دوره مبكرًا...

قبل أن يأخذ أمير أي خطوة عملية لمساعدة أمّه، كان ذهنه كثير الانشغال بما يجري في المنزل، وعيناه ترصدان أي حركة من شأنها أن تشعل شرارة الخلافات بين والديه، وأذناه حادتان لالتقاط أيّ إشارة يفهم منها بأنّ عليه أن يكون حاضرًا جاهزًا للقيام بمهمة الإنقاذ. وبموازاة ذلك كان يفكر بالمهارات التي لديه والتي يحتاج تعلمها لكي تكون له القوة الكافية التي تمكنه من الوقوف في وجه أبيه عندما يتطلب الوضع ذلك، فهو يعلم بأنّ فارق القوّة بينهما كبير.

إنّ المرّة الأولى التي ترجم فيها أمير أفكاره لأفعال كانت عندما تشاجر أبواه معًا وهو في السابعة من عمره، فوقف حينها أمام أبيه الذي كان في ذروه غضبه، وقال له بصوت مرتفع ومرتجف: «ابتعد عن أمي، قلت لك ابتعد عنها».

فسّر الأب تصرّف أمير على أنّه قلة احترام وتدخل فيما لا يعنيه، فنهره وطلب منه أن يذهب. ولكن أمير بقي مكانه وهو يردد: «قلت لك ابتعد عنها». فما كان من أبيه إلا أنّه وجه ضربة له أوجعته. فبقي واقفًا يردد ذات الجملة وهو يبكي. فأشفق الأب على أمير وابنته الصغيرة التي كانت تبكي خوفًا، وعلى الوضع بأكمله... فتركهم وخرج.

أجهشت الأم بالبكاء واحتضنت أمير وابنتها الصغيرة، واحتضنوها. ومع أنّ أمير كان يبكي، إلا أنّه شعر بالإنجاز في حماية أمّه وأخته من غضب أبيه حسب تفسيره.

لم تكن المرات التالية التي تدخل فيها أمير لحماية أمّه سلسة كهذه المرّة. فتعرض لضرب مبرح من أبيه عدة مرّات مما جعله يفكر بأنّه بحاجة لكلمات أشد وعضلات أقوى، وأن تكون لديه مهارات تساعده على التدخل بسرعة أكبر. فبدأ أمير يهتم بغذائه ليقوى جسده، ويقوم ببعض التمارين التي تقوي عضلات يديه، فأصبح تدخله أكثر عنفًا لفظيًا وجسديًا. ففي ذروة شجار قال لأبيه بأنّه لا يحبه ويتمنى لو أنّه لا يأتي إلى المنزل، وفي مرّة أخرى أمسك برجل أبيه يجرّه بعيدًا عن أمّه.

وما يزيد الانفصال بين أمير ووالده صراخ الأم الموجه للأب في كل مرّة: «اترك ولدي»، «لا تؤذي ولدي». كلمات تقولها ليلى بعفوية، ولكنّها جذّرت التحزب بين أنت (الأب)، ونحن (أنا وولدي). والرسالة التي رسختها

في ذهن أمير بأنّك «أنت الأب» العنصر المؤذي في الأسرة، ونحن «أنا وأبنائي» المحتمون ببعضنا البعض من أذاك.

من الممكن أن يختار الطفل تبنّي هذا الدور في سن مبكرة جدًا حيث يبدأ بعملية التفكير والتخيل وأحلام اليقظة والحديث الداخلي وبناء سيناريوهات يتصور نفسه فيها بأنّه قام بأفعال أنقذ فيها أمّه وحمى الأسرة، وبعد ذلك بفترة قد تطول أو تقصر، يقرر بأن يقوم بأفعال يجسد ما تخيله وتصوره على أرض الواقع.

وهم الانتفاع من دور المدافع البطل...

تحتضن ليلى ولدها أمير في كل مرّة ينتهي الشجار، وتدور بينهما سيناريوهات مختلفة هذه أحدها:

الأم: حبيبي أمير، هل تأذيت؟ هل يؤلمك مكان الضرب؟

أمير: لا يا ماما، أنا لم أصب بشيء. المهم أن تكوني أنت بخير.

الأم: تعالي يا ابنتي الصغيرة.

فيأتي أمير ومعه أخته الصغيرة وهما لصيقان بأمّهما التي تتمتم: إلى متى ونحن على هذه الحال، وهذا الولد يتحمل الأذى وهذه الطفلة كذلك.

تتألّم ليلى لأبنائها، ولكن ينتابها في ذات الوقت شعور مريح بأنّ لها ابن يحبها ويتحمل الأذى والضرب والإهانة من أجلها. كما وينتاب أميرًا شعور جميل بأنّه وبالرغم من صغر سنّه تمكّن من منح أمّه شعورًا بالأمان، وبأنّه متواجد لها في الأوقات الصعبة. كما ويطرب أذنيه سماع حديث أمّه مع الآخرين بأنّه الابن المفضل لديها. فهو قد سمعها مرارًا تتكلم مع خالاته وتشرح لهن كمّ الشجاعة التي يتحلى بها أمير، والاهتمام الذي يوليه إياها، والتضحية التي يقوم بها من أجلها ومن أجل الأسرة.

ليس هناك مستفيد حقيقي من هذا الدور، فالضرر يطال الأبناء كما يطال أبويهما ومعهم الأسرة بأكملها. ولكن في أحيان كثيرة تكون المشكلة الكبرى ناتجة عن جهل الطرف المظلوم بحقيقة الدور الذي يلعبه ذلك الطفل والأذى الذي يطاله. فالأم التي يدافع عنها طفلها تعتقد بأنّها مستفيدة مما يقوم به طفلها إذ يعزز لديها ذلك الشعور بالمظلومية، وبأنّ هناك من يشاطرها الألم ويقرّ بأنّها ضحية للوضع الراهن في الأسرة.

الضرر الذي يقع على الطفل المدافع البطل كبيرًا...

إنّ ما تعجز ليلى عن أن توليه الاهتمام الكافي هو الانتباه للتفكير العميق الذي يدور في ذهن أمير لكي يصل للقرار الذي يدفعه للقيام بما يفعل عندما يبدأ الشجار بينها وبين زوجها. فأمير دائم التفكير بأمّه ومظلوميتها وحاجتها إليه. وذهنه مملوء بالصور السلبية عن أبيه، والتي تكرس فكرة أنّه الشخص المؤذي الذي يجب الوقوف بوجهه. فأمير الآن يرى بأنّ عليه مهمة حيوية تتطلب منه أن يكون قويًا، ولكن ليس قويًا من أجل نفسه، بل من أجل أن يتمكن من كسر أبيه والتفوق عليه.

إنّ كل ذلك يخلق صراعًا وعواطف مختلطة بداخل أمير. فهو يدرك بأنّ الشخص الذي يريد الوقوف بوجهه هو أبوه، وبأنّه من المفترض أن يتخذه سندًا له وقوة، وبأنّ مشاعر الحب والاحترام هي التي يجب أن تتبادل بينهما وليس الكره والانتقام. فقلب أمير يذكره بذلك بين الحين والآخر، ولكن سرعان ما تخيم صور الخلافات والمصادمات على تلك المشاعر اللطيفة تجاه أبيه حتى تصبح تلك الصور الموحشة هي المهيمنة.

وذلك التناقض يولد لدى أمير تعقيدًا في شخصيته وفي طريقة تفكيره. فهو من ناحية يعلم بأنّ أباه ليس بذلك السوء الذي رسمه في ذهنه، ولكنّه يرى نفسه الآن في معركة لا يستطيع التراجع عنها وترك أمّه وحيدة والتسبب لها بإحباط إضافي. وهو يدرك أيضًا بأنّه سيخسر أباه الذي يلاحظ فيه علامات وإشارات محبة وعطف يؤمن بأنّها حقيقية، وبأنّ أباه يحبه ويهتم لأمره ويريد خيره. ولكنّه بالرغم من كل ذلك لا يستطيع أن يترك نفسه كما هي دون أن يكون أقوى ليتمكن من مواجهة أبيه بشكل أكبر في المرة التالية، إذ أنّ عدم قيامه بذلك يعني فشله في الوقوف إلى جانب أمّه وحمايتها. فلابد لأمير أن يشحن نفسه عاطفيًا بظلم أبيه ومظلومية أمّه وحاجتها إليه، ويعيد ذلك الشحن باستمرار خاصة بعد تدخله في أيّ شجار.

هناك أضرار كثيرة تقع على الأبناء وعلى الأسرة نتيجة تبنّي أحد الأبناء لدور المدافع البطل، منها:

- انشغال ذهن الأبناء الذين يتبنون دور المدافع البطل بما يثير الغضب ويشجع على الانتقام والأفعال العدائيّة.
- توتر العلاقة وتعزيز الشعور بالكراهية للطرف الذي يقومون بتصنيفه على أنّه الظالم المعتدي.
- تكريس عجز الطرف الذي يقومون بتصنيفه كضعيف بحاجة لحماية. فلا يتمكنون من التعامل معه كأب أو أم ذي صلاحية يستطيعون الرجوع إليه عند المشكلات للقيام بدورهم الأبوي، بل يرون أنفسهم هم المسؤولون عنهم، ويعتقدون بأنّ لديهم قدرة كبيرة بحيث تجعل الطرف الأضعف تحت حمايتهم بدلًا من أن يكونوا هم تحت حمايته.
- ازدياد التفكك والتحزّب في الأسرة.

وهناك منافع يحصل عليها الأبناء الذين يتبنون هذا الدور...

عند نشوب شجار بين كريم وليلى، ينظر الجميع لأمير وينتظرون تدخله وبخاصة أمّه، وذلك بحد ذاته يمنحه شعورًا جيدًا يستحق العناء.

هناك عدّة منافع يحصل عليها الطفل المدافع البطل وهي غير منطوقة في الغالب، من أهمّها:

- الثناء الذي يحصل عليه الطفل من الطرف الضعيف، والحديث عنه كبطل قادر على الحماية بالرغم من صغر سنّه.
- اعتبار الطفل نفسه أقوى وأكثر تميزًا من أقرانه، وبأنّ لديه تجارب تؤهله لأن يكون في موقع أفضل منهم.
- منح الطفل نفسه قوّة وقدرة غير واقعية والعمل على أساسها، فهو يعتقد بأنّ لديه من القوة ما يستطيع معها القيام بما هو صعب لدرجة أنّه يمكن أن يكون حاميًا لمن هم أصلًا تقع على عاتقهم واجب حمايته.

لتبنّي هذا الدور تأثيرات قريبة المدى...

فيما يلي بعض أهم التأثيرات قريبة المدى التي يعيشها الطفل عندما يتبنّى المدافع البطل:

- الحرمان من الطفولة والتفكير الطفولي والألعاب الطفولية.
- الميل نحو العنف وحل المشكلات بالطرق الحاسمة.
- عدم اتزان العلاقة بين الطفل ووالديه.
- خلل في القدرة على طلب المساعدة والمساندة من الأبوين، وصعوبة مشاركته إيّاهم المشكلات التي من الممكن أن يتعرض لها.
- تأثر عملية التعليم سلبًا نتيجة انشغال الذهن، والإمعان في مراقبة الوضع في المنزل للتأهب حين حدوث الخلافات.
- التعب والإرهاق الفكري والجسدي.
- التعرض للأذى الجسدي واللفظي والعاطفي نتيجة تدخله في الأوقات الحرجة التي ترفع من احتمالات تعرضه للضرب والإهانة.

وأخرى بعيدة المدى...

إنّ الآثار بعيدة المدى أكثر عمقًا وبقاء في شخصية الطفل المدافع البطل، وتنعكس على قراراته ونمط تفكيره وتفاعلاته مع الحياة، وهي تظهر بأشكال مختلفة عندما يصبح أبًا أو أمًا مستقبلًا. فيما يلي أهم تلك التأثيرات:

- استنتاج معاني كبيرة وتعميمها. فإن كانت الأم هي الضعيفة من وجهة نظر الطفل وقرر أخذ دور المدافع البطل من أجل حمايتها، فمن الممكن أن يستنتج بأنّ المرأة أو الزوجة ضعيفة أمام الرجل أو الزوج، وهي بحاجة لمن يتدخل ويدافع عنها.
- الافتقار للأسس السليمة لمفاهيم الزوجية والوالدية مع غياب النموذج المعتدل لهما في حياته.

- الشعور بالمسؤولية المستدامة في أمور ليست له علاقة بها، ومنح اهتمام أقل للأمور التي تستوجب انتباهه وتحمله لمسؤوليتها بحسب عمره.
- الاعتياد على الاستنتاج المبني على التفكير غير السليم، والمستند على المشاعر وما يبدو من ظاهر الأمور دون التأكد من صحتها.
- عدم التوازن في المشاعر والتذبذب بين مشاعر مختلفة وأحيانًا متناقضة كالحب والكره، والشعور بالواجب والشعور بالذنب، والاحترام والانتقام. فهو في أعماقه يحب أباه، ومع ذلك يجبر نفسه على التفكير بسوء عنه واستدعاء مشاعر سلبية تتعلق به.

وأمّا الإحباطات التي تحيط به...

هناك أوقات تكون فيها الأمور هادئة في المنزل، ويكون والدا أمير لطيفين معًا، يتحدثان بطريقة تنتعش معها الأسرة كلّها، ومع ذلك يجد أمير صعوبة في التواصل مع أبيه. وهو يخشى أنّه إن فعل ذلك أن تفهم أمّه خطوته تلك على أنّه راض عمّا يفعله أبوه وتفقد ثقتها بدوره في حمايتها، مع أنّها في تلك اللحظة تكون هي قريبة جدًا من أبيه وتبدو سعيدة معه.

وبالرغم من جهوده المستمرّة، إلا أنّه أصبح مستهدفًا لعتاب أمّه مرات عديدة. فذات مرّة كان عتابها له شديدًا بسبب عدم تواجده في الوقت الذي حصل فيه شجار مع زوجها، ومرّة أخرى كان عتابها له بسبب عدم قيامه بما يكفي ليوقف الضرر عنها.

هذا ويعتبر أمير نفسه بأنّ لديه قوّة وأهمية أكثر من أقرانه، فهو يشعر في قرارة نفسه بأنّه ليس طفلًا اعتياديًا اعتماديًا كما أقرانه. وهو يميل لأن يأخذ دور المنقذ أيضًا عندما يكون مع أقرانه في المدرسة وخارج المنزل. كما ويميل لأن يكون مسيطرًا يستخدم القوّة الجسدية والنفسية العاطفية للوصول لما يريد عندما يلعب مع أصدقائه. فيلجأ أحيانًا للسيطرة عليهم بحشرهم في زاوية يضطرهم معها للرضوخ لما يريد، أو يهددهم بأنّهم سيخسرون صداقته إذا ما لم ينفذوا ما يريد.

علّ أكثر الحالات التي يعيشها الأبناء الذين يتبنون دور المدافع البطل هي حالات الإحباط وذلك لعدة أسباب منها:

- يصرف الأبناء الذين يتبنون دور المدافع البطل الكثير من الوقت والجهد في التفسير والتفكير والتخطيط من أجل مساعدة الشخص الضحية والدفاع عنه، وبالرغم من ذلك فهم يعلمون بأنّهم صغار ويدركون جوانب ضعفهم، وبأنّ ما يفعلون لن يحل المشكلة من جذورها، ولن يوقف التهديد الذي يخيفهم. فجلّ ما يمكنهم فعله حقيقة هو إيقاف الضرر عن الشخص الضحية بين فترة وأخرى.
- يحتاج جميع الأبناء لحنان والديهم وحمايتهم دون استثناء، ولكنّ الأبناء الذين يختارون دور المدافع البطل لا يمكنهم الحصول على ذلك الحنان وتلك الحماية بشكل سليم نظرًا للتعقيدات التي تحدث في علاقاتهم مع والديهم. فهم يبتعدون قسرًا عن أبيهم، ولا يستطيعون توقع حصول الحماية من أمّهم التي يعتبرون أنفسهم بأنّهم هم المسؤولون عن منحها الحنان والحماية وليس العكس.
- يصعب على الأبناء الذين يتبنون دور المدافع البطل أن يتعاملوا ويلعبوا ويتفاعلوا مع أقرانهم بحسب متطلبات أعمارهم مع رغبتهم الشديدة في ذلك.

ويبقى ذلك الدور حيًا متفاعلًا يومًا بعد يوم...

لابدَّ من محرك يغذي رغبة الأبناء الذين يتبنون هذا الدور ويحثّهم على الاستمرار، من أهمّها:

- استمرار الخلافات بين الأبوين.
- تكرار شكوى الطرف الضعيف من الأذى والذي يؤدي بالأبناء إلى الشعور بالحاجة المستمرة للقيام بدور الحماية.
- استنجاد الجانب الضعيف بهم عند حدوث الشجار، أو مشاركتهم الهموم التي يشعر بها الطرف الضعيف والتي من شأنها أن توحي للأبناء بأنّهم هم المسؤولون عن تصحيح الوضع الصعب الموجود في الأسرة حاليًا.
- توبيخ الأبناء الذين يتبنون دور المدافع البطل لعدم تواجدهم في وقت الأزمات ليأخذوا أدوارهم ويقومون بما عليهم من أجل الحماية. فبذلك يعيش الأبناء شعورًا مختلطًا بين ما يقره ذلك التوبيخ من أهميتهم وأهمية تواجدهم وقوّة تأثيرهم، وبين تأنيب ضمائرهم لعدم تمكنهم من التواجد وقت الحاجة.
- حديث الطرف الضعيف مع الآخرين عن الأبناء الذين يتبنون دور المدافع البطل، وتمجيدهم وتعظيم دورهم في الحماية والدعم الذي يقدمونه بالرغم من صغر سنّهم.
- تميّزهم لدى الطرف الضعيف على باقي إخوتهم.

هناك دائمًا ما يمكن للآباء القيام به للتصحيح...

إنّ أهم ما يمكن لكريم وليلى أن يقوما به لمساعدة أمير وإخوته هو أن يأخذا مشكلاتهما بعيدًا عن مرأى ومسمع أبنائهما، ويكون الاحترام هو السائد وليس فرض الرأي واستخدام القوة العاطفية والنفسية والجسدية والاقتصادية لإخضاع الآخر. وذلك ينطبق على أمير الذي تبنّى دور المدافع البطل، وكذلك على إخوته الذين قرروا تبنّي أدوارٍ مبطنة أخرى في الأسرة. فيما يلي بعض ما يمكن لليلى القيام به لمساعدة أمير كون ليلى هي الطرف الأضعف الذي تبنّى أمير الدور من أجلها، لذا هي لها تأثير مباشر في مساعدة أمير:

عند نشوب خلاف مهما كان صعبًا وبدا بأنّ كريم هو المعتدي، تتأكد ليلى من أنّها توصل رسالة لأمير مفادها بأنّها قادرة على التعامل مع الموقف، كأن تقول: «انا بخير حبيبي أمير، هذا بيني وبين أبيك ونحن سنتصرّف في حل الموضوع».

تبتعد ليلى كل البعد عن الشكوى المباشرة وغير المباشرة لأبنائها عن أبيهم وبخاصة أمير.

تستخدم ليلى كلمة «كريم» إذا أرادت أن تتكلم بما هو سلبي عن زوجها وليس «أبوك»، فربط كلمة الأب بالسلبية مؤذية بالنسبة للأبناء، فذلك يربط مصدر عزّة الأبناء وقوتهم وحمايتهم بالسلبية أيضًا.

في حال وجدت ليلى بأنّه من الصعب أن تسيطر على انفعالاتها، ورآها أمير وهي تبكي مثلًا وأتى لها محاولًا مساعدتها، فمن الممكن أن تشاركه مشاعرها بالقدر المعقول ولا تنفيها لتحتفظ بمصداقيتها لديه، ولكن في ذات الوقت تطمئنه بأنّها قادرة على التعامل مع تلك المشاعر. كأن تقول له: «أنا منزعجة الآن قليلًا ولكنّي سأكون بخير».

تستثمر ليلى الأوقات الاعتيادية التي يكون فيها الوضع هادئًا وذلك للحوار مع أمير، وتوضيح بعض الأمور الأساسية في العلاقة بينها وبين زوجها. فيمكنها توضيح مفاهيم صحيحة ولكنّها مختصرة، كأن تقول: «هناك أمور تختص بالأبوين لا يعرف عنها الأبناء»، «نعيش أنا وأبوك معًا لسنوات طويلة ولدينا أمور مشتركة كثيرة، فما يبدو لك بأنّه سبب للخلاف توجد به جوانب أخرى أيضًا».

تعزز ليلى مفهوم الحماية لأمير وبأنّها هي كأم مسؤولة عن حمايته وحماية إخوته، وبأنّها قادرة على الوقوف إلى جانبه مهما كان حجم المشكلات الموجودة في المنزل وصعوبتها.

تبادر ليلى بسؤال أمير عن أحواله وتطلب منه أن يشاركها كل ما يقلقه ويؤذيه، وتطمئنه بأنّه يمكنه أن يثق بها وبقدرتها وقوّتها للوقوف إلى جانبه ومساندته.

إنّ أهم ما يمكن للآباء أن يقوموا به هو إبعاد مشكلاتهم وخلافاتهم عن أبنائهم، فمن شأن ذلك أن ينهي الحاجة لتنبني الأبناء الأدوار المبطنة بأنواعها تمامًا.

إنّ الشخص الأساسي الذي يمكنه أن يساعد الأبناء الذين يتبنون دور المدافع البطل هو الطرف الضعيف من وجهة نظرهم، والتي عادة ما تكون الأم. فأهم ما يمكن أن توصله الأم لهؤلاء الأبناء هي رسالة مفادها بأنّ: «ما يحدث بينها وبين أبيه هو شيء يخص الكبار، وأنه صغير والموضوع برمته لا يتناسب مع سنّه، وبأنّها قادرة على التعامل مع الموضوع بنفسها ولا تحتاج لمساعدة في التدخل. وبأنّها تشعر بالراحة والمتعة عندما تكون معه ومع إخوته ويقومون معًا بأمور يحبونها كأن يتحاوروا أو يقرأوا أو يقوموا ببعض الزيارات، فمن شأن ذلك أن يساعدها كثيرًا على تخفيف الضغوط عليها ويصنع جوًا إيجابيًا في المنزل».

هذا بالإضافة للخطوات التالية...

- البعد عن تمجيد الأبناء الذين يتبنون دور المدافع البطل، وعدم الحديث عنّهم وكأنّهم يقومون بدور الحماية، والاستعاضة عن ذلك بتمجيد جوانب أخرى فيهم كقلبهم الطيب الحنون مثلًا.
- البعد كل البعد عن مشاركة الأبناء مشكلات الأسرة والحديث معهم أو أمامهم عن الضعف والمسكنة والعجز.
- إيمان الأم في ذهنها أولًا، وانعكاس ذلك في حديثها ثانيًا على أنّ دور الحماية منوط بها هي كأم وليس على أبنائها، وتكريس قدرتها على ذلك في نفسها.
- التركيز على أنّ المشكلة بينها وبين زوجها وليس بينها وبين أبيهم. فالمشكلة هي مشكلة زوجية وليست مشكلة تتعلق بأبوّته لهم. وبأنّه مهما كانت الخلافات كبيرة ومعقدة، إلا أنّها كأمّ تسعى لأن يحتفظ الأبناء بمحبة أبيهم في قلوبهم. فحتى لو كان التصرف الذي يقوم به الأب غير مناسب، فإنّ ذلك لا يغير من حقيقة أنّ أباهم يحب أن يراهم موفقين سعداء في جميع الأحوال.
- تعزيز الأم لمفهوم تحمل الأبناء لمسؤوليات قبال الأسرة، ولكن ليس مسؤولية الحماية وحل مشكلات الوالدين، بل مسؤولية تتناسب مع أعمارهم وتتلخص في التركيز على القيام بواجبهم في الدراسة والمساندة في الأمور المنزلية المطلوبة منهم، وبأنّ ذلك هو نوع من الاستثمار في المستقبل للأسرة وهو هام لها وللجميع.

خلاصة النوع الأوّل من الأدوار المبطنّة: الطفل المدافع البطل...

يميل الطفل لتبنّي دور المدافع البطل من أجل أن يكون حاميًا عن طرف ضعيف في الأسرة يحبه الطفل (وغالبًا ما يصنفه الأبناء على أنّها الأم)، وذلك ضد شخص آخر قوي في الأسرة لديه قدرة وسيطرة على الطرف الضعيف (وغالبًا ما يصنفه الأبناء على أنّه الأب). ويستنتج الطفل هنا بأنّه مجبر على القيام بذلك الدور عندما يكون الطرف الضعيف لا حول له ولا قوّة من وجهة نظره، فيعتقد بأنّه بحاجة للتدخل لوقف الأذى عنه ومنحه شعورًا بالأمان، فيختار أن يكون هو ذلك الشخص الذي يتدخل وينقذ.

يبدأ الطفل المدافع البطل بالتفكير والتفسير والتخطيط لذلك، ويُبقى ذهنه منشغلًا وحديثه الداخلي مع نفسه فاعلًا فيما يختص بحماية الشخص الضعيف، ويصبح ذلك همّه وشغله الشاغل. فيكلفه ذلك جلّ وقته وتركيزه، ولا يترك له مجالًا كافيًا للعب مع الأطفال والتفكير بالتعليم وما يتوجب عليه الالتفات إليه بالنسبة لسنّه. وهناك أمور يقوم بها الطرف الضعيف تصب في دفع الطفل المدافع البطل لتحمل مسؤولية ذلك الدور وتفعيله، وإبقائه حيًا مستمرًا بالرغم من الأذى الذي من الممكن أن يصيبه سواء كان ذلك الأذى موجهًا له من أبيه، أو ناتجًا عن حرمانه الكثير من الأمور التي يود القيام بها والمتناسبة مع عمره، والتي لا يتمكن من القيام بها لتزاحم أولوياته التي أصبحت تتعلق بدوره المبطن الذي اختاره لنفسه.

النوع الثاني من الأدوار: الطفل المشاكس كبش الفداء

تراقب ريما ذات الـ ١٥ عامًا ما يحدث في المنزل من خلافات وشجار وخصام. وهي تشعر بالغضب الشديد على أبيها الذي تعتقد بأنّه يفتعل ويختلق المشكلات من أجل أن يصرخ ويثبت وجوده. كما وتشعر بالغضب الأشد على أمّها التي تصفها بأنّها لا تعرف كيف تتصرف مع زوج كأبيها، وجلّ ما تفعله هو الخصام. فلو لم تكن تتواجد أمام أبيها بشكل مستمر، ولو تجنبت الحديث غير الضروري ولم تطل النقاش معه فيما لا طائل منه، لتقلصت احتمالات نشوب الخلافات.

لا تجد ريما جدوى في التفكير المستمر بالأسباب التي تؤدي بوالديها إلى الشجار والبقاء في مشاكلهما، فهي تحبهما حباً جمًا بالرغم من غضبها عليهما. وهي تشفق على أخويها كثيرًا كونهما يضطران لمشاهدة النزاعات بين والديها، ويؤلمها حال أخيها أمير بشكل خاص، إذ ترى بأنّه يتحمل الضرر الأكبر من استقبال غضب أبيه المباشر عند حدوث الشجارات، وأيضًا من عدم قدرته على الاندماج مع الأسرة في الأوقات الهادئة السعيدة التي يكونون فيها معًا كأسرة متكاملة.

يلاحظ الطفل الذي يتبنّى دور المشاكس كبش الفداء المشكلات في أسرته كما يلاحظها الطفل الذي اختار أن يكون مدافعًا بطلًا، ولكن الفرق بينهما هو نمط تفسيرهما لتلك المشكلات والأحداث والشجارات. فالطفل المشاكس كبش الفداء يعتقد بأنه لو تم التشويش على المشكلة قبل وقوع الشجار لما تعقدت الأمور ووصلت للشجار. ومن أجل ذلك فهو يتبنى عدة إستراتيجيات للتشويش كي يضطر والداه للالتفات إليه وللمشكلات التي يختلقها هو، بدلًا من الالتفات للخلافات والمشكلات الخاصة بهم، والتركيز على معاقبته هو، بدل من الشجار مع بعضهم البعض.

ويقوم الطفل بتبنّي استراتيجيات تشويش مختلفة تترصد أساسًا الشخص الذي يصفه الطفل بأنّه هو المسؤول عن بدء الشجار، وهي على مرحلتين:

الأولى في أوقات النزاعات: حيث يتعمد التفوه بكلمات يعلم بأنّها غير مقبولة، أو يقوم بأفعال استفزازية، أو يطلب من والديه السماح له بالقيام بفعل هو يعلم بأنّه خارج عن إطار ثقافة الأسرة ولا يمكنهما أن يرتضيانه.

الثانية في الأوقات الاعتيادية: فيتفنن في خلق مشكلة أخرى هو طرف فيها يحاول من خلالها تشتيت الانتباه عن المشكلة الأساسية بين والديه. فبدل من أن يكون الشجار بين أمّه وأبيه، سيضطرهم ليقفوا معًا لتكون المشكلة بينهما وبينه.

إنّ الطفل المشاكس كبش الفداء يحاول أن يخلق مشكلة يكون هو طرفًا فيها سعيًا منه لأن تكون لديه السيطرة على مجريات الأمور وتحمل عبء العقاب والأذى وتبعاته. فعلى عكس الطفل المدافع البطل الذي يحاول أن يرفع نسبة القوة في جسده، يحاول الطفل المشاكس كبش الفداء أن يقوي قدرته على التحمّل واستقبال الضرب والإهانة وما شابه. فيوصف بالطفل المشاكس والمؤذي وغير المؤدّب، ويكون عرضة لسماع كلمات جارحة موجهة إليه يوصم بها، ومع ذلك فهو يستقبل ذلك الأذى بروح راضية اعتقادًا منه بأنّه هو الثمن الذي عليه أن يدفعه من أجل أن تكون علاقة أمّه وأبيه أفضل مما هي عليه، وأن تتوقف النزاعات أو يتم التخفيف من حدتها.

ولدى الأبناء أسباب وأهداف لتبنّيهم دور المشاكس كبش الفداء...

أرادت ريما أن توجه تركيز والديها من مشكلاتهما لمشكلة هي تخلقها، فتتحمل هي بذلك الصدمة والأذى والعواقب بدل من أن يتحمله والداها. وهي تأمل من خلال ذلك أيضًا أن تساعد أمير ليكون مقبولًا أكثر من قبل والدها وأن تأخذ مكانه لتكون هي السيئة في عين أبيها بدل منه على أمل أن يكون والدها ألطف مع أمير، وفي ذات الوقت يتمكن أمير من التفاعل مع أبيه والشعور بمحبته وأبوّته.

الأبناء الذين يتبنون دور المشاكس كبش الفداء هم أبناء حنونون يقدمون تضحيات من أجل آبائهم وأفراد الأسرة الآخرين، وبخاصة إخوتهم الصغار الذين يشفقون عليهم لوجودهم بين أبوين غير متفقين. فتفكير الأبناء الذين يتبنون دور المشاكس كبش الفداء يدور حول المجالات التي من الممكن أن تجلب لهم مشكلات وأضرارًا وعقوبات، ويسعون لأن يجدوا سبيلاً لتكون تلك المشكلات قوية والأضرار كبيرة لدرجة يمكنها التغطية على المشكلة القائمة بين أبويهم. فجل تركيز هؤلاء الأبناء يتمحور حول الحصول على نقاط الضعف وجوانب الاستفزاز لدى أبويهم من أجل استثمارها عندما يكونون بحاجة للقيام بما يشتت انتباه آبائهم من مشكلتهما وتوجيهها لمشكلة أخرى يكونون هم طرفًا فيها، ذلك سعيًا منهم لتقليص وطأة المشكلة بين والديهم والحيلولة دون رؤية إخوتهم لنزاعات أبويهم.

لقرار الطفل أخذ دور المشاكس كبش الفداء نقطة بداية...

تشعر ريما بالغضب طوال الوقت من الخلافات المتراكمة بين أبويها، وهي تراها تافهة أحيانًا وغير مفهومة أحيانًا أخرى. فهي تلاحظ انفجارًا لمشكلة دون أن يبدو هناك سبب يستحق كل ما سيحصل. كما وتدرك ريما نسبة الاستفزاز العالية التي يعاني منها والداها تجاه بعضهما البعض. فموقف صغير يؤدي بأبيها للصراخ، وكلمة صغيرة من أبيها تؤدي بأمّها للرد الجارح والبكاء. وما هو ملفت بالنسبة إليها هو أنّ ذلك الاستفزاز يكون قائمًا حتى في الأوقات الاعتيادية، أو حين يكون أبواها مشغولين في أمور تهمهما. وكانت تلك بداية ربط الخيوط في ذهنها للكيفية التي يمكنها أن تستثمر ذلك الاستفزاز المؤلم، وتُحدث منه مخرجًا من الأزمات والخلافات القائمة بين أبويها ولو بشكل مؤقت، وبذلك تكون هي الطرف الذي يتلقى الألم والأذى.

عادة ما يأتي تبنّي دور المشاكس كبش الفداء نتيجة فكرة تخطر في ذهن الطفل، وليس كضرورة يراها بديهية كما في حال الطفل المدافع البطل، والذي يعتقد بأنّ هناك حاجة ونداء للحماية عليه تلبيته. فما يقوم به الطفل المشاكس كبش الفداء بحاجة لتفكير واستنتاج أكثر تعقيدًا من ذلك الذي يقوم به الطفل المدافع البطل. فتبنّيه لدور المشاكس كبش الفداء يأتي نتيجة ملاحظات متكررة مفادها أنّ:

- التركيز على أي مشكلة يزيد من حدتها.
- تشتت الانتباه عن المشكلة يقلل فرص تطورها.
- ينتقل الانتباه من مشكلة قائمة إلى أخرى إذا كانت الثانية أكبر أو أكثر استفزازًا.

فتلفت هذه الظاهرة انتباهه، ويبقى يلاحظ مجالات تطبيقها في المنزل وردود أفعال أبويه تجاهها، ومن ثمّ يفكر في الكيفية التي يمكنه فيها استثمار ذلك لصالح الأسرة.

وما من مستفيد في الأسرة بعد هذا العناء...

لا أحد يستفيد من دور ريما في الأسرة، فالجميع متضرر بشكل ما. والمشكلات تتفاقم بين كريم وليلى مع التعقيدات التي تخلقها ريما، فتصبح أحيانًا هي موضوعًا للشجار بينهما، ويتهم بعدها كل منهما الآخر بالتقصير. فيلوم كريم ليلى متهمًا إياها بعدم منحه الوقت الكافي لتربية ابنتها، بينما تلقي ليلى بالملامة على كريم وتتهمه بأنّ وجوده المؤذي في المنزل يجعل ريما لا تطيق التواجد فيه حتى أصبحت عصبية لا تعرف حدود الأدب في الأسرة. وريما تتلقى من كليهما التوبيخ والملامة والتعنيف الجسدي أحيانًا، بينما إخوتها يرونها سببًا في تعقيد وضع الأسرة ورفع نسبة الخلافات فيها.

لا يوجد شخص محدد مستفيد من وجود الطفل المشاكس كبش الفداء في الأسرة، إذ أنّ هذا الدور يسبب تشنجًا للأسرة بأكملها، وربّما ساهم في رفع نسبة الخلافات الموجودة بين الأبوين، فيشكل ذلك عبئًا إضافيًا عليهما. ففي الأوقات التي يستفز فيها الطفل المشاكس كبش الفداء أبويه حينما يكونا في خلاف أو في حالة غضب، فهو يقوم بذلك في الوقت الذي تزداد فيه احتمالات قيامهم بردود أفعال أكثر قسوة. وذلك بحد ذاته يرفع من نسبة التوتر في الأسرة، وهذا ما لا يعيه الطفل المشاكس كبش الفداء. فهو يريد أن يقوم بشيء ذي قيمة لمساعدة أسرته، فيعتبر مجرّد تشتت انتباه والديه عن خلافاتهم والتوجه إليه وتوبيخه وتعنيفه ولو لفترة قصيرة انتصارًا يشعر معه بالإنجاز والرضا.

وتبقى الأضرار التي يتحملها الطفل نتيجة تبنّيه هذا الدور جسيمة...

كثيرًا ما يكون ذهن ريما مشغولاً في كيفية استثمار الوضع الحالي واصطياد منافذ الاستفزاز من أجل اختلاق المشكلات، وذلك يحرف ذهنها عن التفكير في تعليمها ومستقبلها وتطوير مهاراتها المؤدية لنجاحها.

فجلّ تركيزها يتمحور حول كيفية استغلال الثغرات الموجودة في الأسرة من أجل أن تقوم بفعل لا يرتضيه أبواها، وبالكيفية التي تصنع من خلالها مشكلة تكون كبيرة ومثيرة لدرجة أنّها تشغل أبويها عن التفكير في مشكلاتهما الحالية.
كما وتتعرض ريما للتوبيخ والإهانة والحرمان والعقاب دائمًا، وللضرب أحيانًا. ويتم اتهامها بأمور لم تكن لها يد فيها، فهي الهدف الأسهل لإلقاء اللوم عليها عند حدوث الأخطاء. ومن الاعتيادي جدًا أن يتم الحديث عنها بسوء أمام إخوتها وعائلتها الممتدة، حيث أصبحت ريما المثل السيء الذي تسوقه خالاتها لبناتهن لتحذيرهن من أن يكنّ سيئات كما ريما.
ولا أحد يعلم عما يجري في قلب ريما الجميل، ذلك القلب الذي آثر أن يضحي بالكثير من أجل عجز والديها عن القيام بدورهم في خلق منزل هادئ يساعد على النمو الشخصي والإنساني لها ولإخوتها ولأمّها وأبيها.

إنّ الأضرار التي تقع على الطفل الذي يختار دور المشاكس كبش الفداء عديدة، وهي نفسية وجسدية وعاطفية. وهو يكون أكثر عرضة للأذى من غيره، وهذه بعض تلك الأضرار:

- يوصم الطفل بالمشكلة والمشاكس وغير المؤدّب وغيرها من الصفات التي من شأن الاستمرار بوصمه فيها أن تتحوّل كجزء من هويته.
- يعيش تناقضًا وترقبًا لما هو مؤذي بالنسبة إليه، فهو يتصنّع المشكلة ويعلم بأنّها ستجلب عليه الأذى وربّما الضرب والإهانة ولكنّه يرى ذلك ضروريًا لإنقاذ أسرته.
- يصبح خبيرًا في صناعة السيناريوهات السلبية وفي خلق المشكلات مما يؤثر على طريقة تفكيره في الأمور الحياتية الأخرى.
- يسهل على الآخرين اتهامه بما هو خطأ لوجود انطباعات سيئة عنه، وكثيرًا ما يشعر بعدم القدرة على الدفاع عن نفسه بالرغم من براءته من التهم التي تلقى عليه.

ولهذا الدور تأثيرات مؤذية على المدى القريب...

لدى ريما قناعة بأنّها ليست البنت التي تمناها أبواها. وعندما تقوم إحدى صديقاتها أو قريباتها بفعل سيء أو غير مقبول، يتم التفسير تلقائيًا بأنّها تجرأت على فعل ذلك جراء مصاحبتها لريما. فهي تسمع وترى ما لا يدع لها مجالًا للشك بأنّها شخص غير مرغوب فيه خاصة من قبل الوالدين وذلك مخافة أن تؤثر على بناتهن سلبًا، فيتجرأن على الاعتراض والاستقواء على أهلهن. ويشكل ذلك الامتعاض من الظلم الذي تتعرض إليه دافعًا إضافيًا يحفّز ذهنها للانشغال بالغضب، والتفكير بكيفية التعبير عنه. فتدخل في فخ دائرة الغضب والرد على الظلم الذي تتعرض إليه، فتتورط في مشكلات أكثر وأكبر، ويصعب عليها الخروج من تلك الدائرة التي اعتادت عليها وألفتها.

إنّ التأثيرات القريبة المدى للأبناء الذين يتبنون دور المشاكس كبش الفداء كثيرة وهي شبه يومية، وعادة ما تكون في الأسرة والمدرسة والعائلة الممتدة. فيما يلي نبذه عن تلك التأثريات:

- تلقي العقاب اللفظي والبدني والعاطفي.
- التعرض للإحراج أمام الآخرين.
- الوصم بصفات مؤذية ومهينة.
- الخوف والترقب والتفكير الدائم بالأمور السلبية.
- استخدام الخيال والإبداع في جوانب مؤذية يكونون معها مستحقين للعقاب.
- النظرة الدونية للذات.
- تحميلهم مسؤولية الأخطاء خاصة مجهولة المصدر، إذ هم المعروفون بالمشاغبة فيكونون هم المتهمون الأوّائل، ويصعب تصديق براءتهم حتى ولو ظلمهم الآخرون واعتدوا عليهم.

وأخرى على المدى البعيد...

تقول ليلى لريما دائمًا، «من سيتزوجك وأنت بهذا الحال؟»، «أنت تقفزين من مشكلة لأخرى وتتسببين لنا بالأذى»، «أنت مثال سيء لإخوتك». ولكن بالنسبة لريما، فإنّ اختلاق المشاكل أصبح جزءًا من هويتها يصعب عليها هي أيضًا أن تتعرف على نفسها دونها. فذهنها اعتاد على ذلك وأصبح هو المعروف والمألوف بالنسبة إليه.

إن ذات ريما لا تعني لها شيئًا كبيرًا، فهي اعتادت على أن تكسر كبرياءها وكرامتها في كل مرة تختلق فيها مشكلة تعلم بأنّها ستهان وتعاقب بعدها. ولكن تحمل ريما في قلبها رضًا وقبولًا لذلك الوضع، فبالنسبة لها إنّ ما تقوم به هو تضحية كبرى لا يعلم بها أحد، ولا يقدرها حتى أولئك الذين تقوم بها من أجلهم، بل وتتعرض للملامة والعقاب منهم أكثر مما تتعرض لها من الآخرين. فريما هشة ضعيفة متعبة من الداخل، ولكنّها تخفي تلك الهشاشة وذلك الضعف خلف إطار من القوة والقسوة تواجه به الآخرين.

إنّ ريما أحوج ما تكون للاحتواء والمحبة والتفهم والحنان، بينما ما تفعله يبعد عنها ما تحتاجه تحديدًا. فهذا الخليط كله يتحول في لا وعيها تدريجيًا لقناعات مشوهة تتبنّاها وتعيشها وتمضي حياتها بها. فإحدى تلك القناعات التي تبنتها ريما مثلًا هي أنّها بحاجة لأن تدوس على نفسها وتتحمل الظلم والإهانة من أجل أن تساعد من تحب، وتقلص من الصعوبات التي يتعرضون لها والأذى الذي يمكن أن يلحق بهم. وتلك القناعة بالتحديد إن بقيت معها في سنوات شبابها، ستكون بداية مشكلات عميقة وعصيبة سترافقها في حياتها الزوجية، وسيصل تأثيرها السلبي للأجيال القادمة.

إنّ التأثيرات البعيدة المدى على الأبناء الذين يتبنون دور المشاكس كبش الفداء عميقة، ومن الممكن أن تنخر في علاقاتهم المستقبلية خاصة الزوجية منها، من أهم تلك التأثيرات:

- خلط في معاني قيمية راقية وتحويلها لمعاني مؤذية، كارتباط معنى التضحية بإيذاء الذات.
- اختيار أنماطًا للتعامل مع المشكلات بالالتفاف حولها وليس حلّها. حيث تتمحور تلك الأنماط حول تحوير المشكلة وتحويلها من مشكلة غير قابلة للتحكّم إلى أخرى قابلة للتحكم، ولكن لا يكون التوجه نحو حلّها.

والاحباطات مستدامة...

كل توبيخ وعقوبة وشجار مع ريما يحمل لها إحباطًا، إذ جزاء الخير ألم بالنسبة إليها. فأبواها دائما الشجار معها، وأحيانًا كثيرة يتشاجر أبواها بسبب الاستفزاز الذي تقوم به هي. ففي إحدى المرّات كان الوضع متوترًا جدًا بين أبويها وأرادت أن تحرف الموضوع عن المشكلة الأساسية، فقالت لوالدها بأنّها ستتأخر ليلًا لدى صديقتها وهي تعرف حساسية ذلك الموضوع لوالدها، فاشتط غضبًا وارتفع صوت صراخه أكثر وحمّلها مسؤولية الأذى الذي يتعرضون له في الأسرة، وبأنّها أتعبتهم لدرجة باتوا لا يتحملون أمورًا أخرى. وما هو مؤلم بالنسبة لريما هو إيمان والدها ووالدتها بصحة ذلك وبأنّها هي سبب الألم والأذى للأسرة.

من الإحباطات التي يمكن أن تصيب الأبناء الذين يتبنون دور المشاكس كبش الفداء هي:

- هناك احتمالات كبيرة بأن يتعرّض الطفل المشاكس كبش الفداء للعقوبة، ومع ذلك تكون خلافات والديه مستمرّة، فلا يشعر بتحقيق شيء في مقابل العقوبة التي تلقاها.
- تنشب أحيانًا خلافات بين الأبوين بسبب المشكلة أو الاستفزاز الذي يخلقه الطفل المشاكس كبش الفداء، فيكون هو سببًا في مشكلات إضافية لأبويه.
- يدخل الأبوان في مشاحنات تتعلق بتربية الأبناء، ويكون الطفل المشاكس كبش الفداء هو موضوع الشجار كتجربة فاشلة في القدرة على التربية.
- عدم رضا الأبوين عن الطفل المشاكس كبش الفداء، ويؤمنون بأنّه سبب لعدم استقرار الأسرة ولولاه لربما كان حالهم أفضل ويتعاملون معه على ذلك الأساس.

ولا يستدام حال دون محفّز يبقيه...

تشعر ريما بالإرهاق وعدم التقدير، ولكن ينتابها في ذات الوقت شعور جيد عن نفسها حيث أنّها تتحمل مسؤولية مساعدة أسرتها التي تحبها على الرغم من أنّ أفراد أسرتها يؤمنون بأنّ كل ما تفعله ينبع من أنانيتها ولا مبالاتها وعدم شعورها بالمسؤولية، وافتقارها للقدرة على منح أسرتها المحبة والاهتمام. ومع ذلك ففي أحيان كثيرة ينتابها شعور جيد عن نفسها بأنّها قادرة على السيطرة على أوضاع البيت. فهي تتمكن من أن تدير دفة الحديث الذي يدور بين والديها وتغيّر موضوع مشكلاتهما، مما يجعلها ترى في نفسها قدرة تمجدها وتؤمن بفائدتها ليس فقط في المنزل مع أسرتها، بل في المدرسة ومع أقرانها أيضًا.

يتعرض الأبناء الذين يتبنون دور المشاكس كبش الفداء للكثير من الأذى، ولا يستطيعون استكمال دورهم لولا وجود محفّز قوي يساعدهم على الاستمرار فيما يلي أهمها:

- الشعور بالعطاء والقدرة على التضحية من أجل من يحبون.
- الإيمان بقدرتهم على التأثير من خلال قيامهم بما يساعد أسرهم دون أن يشعر بهم أحد.
- الشعور بالسيطرة ومسك زمام أمور اللحظة التي يقررون فيها التدخل والذي يتجسد من خلال قدرتهم على لفت انتباه والديهم فورًا عندما يريدون والذي ينتج عنه إجبارهم على قطع حديثهما والانتباه إليهم بشكل فوري.

يمتلك الأبوان الوصفة الناجحة لمساعدة أبنائهم...

إنّ الوصفة الأنجح لتخلي ريما عن دورها المبطن في الأسرة كمشاكس كبش فداء هو تحمل كريم وليلى لمسؤوليتهما الأسرية، وإبعاد خلافاتهما وشجارهما عن الأبناء بشكل عام وريما بشكل خاص. فمن الصعب جدًا إيقاف ريما عن اختلاق المشاكل بعدما تجذر الدور المبطن في ذهنها وانعكس على تصرفها. ومع ذلك يمكن مساعدتها على تصحيح قناعاتها التي تؤدّي بها للتخلي رويدًا رويدًا عن الدور الذي تبنّته، وذلك من خلال:

- **تعزيز هوية ريما الطيبة والتركيز عليها وليس على فعلها المؤذي. فبدل من أن يقول لها أبوها: «أنت مؤذية حولتِ حياتنا لجحيم». من الممكن أن يقول لها: «انت فتاة طيبة وربما تريدين إيصال فكرة ما، ولكن الأفعال التي تختارينها لإيصال تلك الفكرة لا تخدمك وتوصل فكرة غير مناسبة عنك».**
- **الحوار مع ريما بدل الشجار معها. فعندما تختلق مشكلة عند وجود خلاف وشجار بين أبويها، سيمنحها الصراخ المتقابل شعورًا بالإنجاز بأنّها تمكنت من تحوير الشجار ليكون معها. مثلًا، هي تعلم حساسية أبويها للتأخير في الليل وبأنّ هذا الموضوع يشكل لها نقطة استفزاز. فتقاطعهما بلا مقدمات وتقول: «أنا ذاهبة لمنزل صديقتي وستأخر للساعة الحادية عشرة، ولا تبدأوا معي الموال اليومي بما يمكن وما لا يمكن، جميع صديقاتي هناك وأنا لست أقل من أحد». فحينها يتم الحديث معها بشكل هادئ دون انفعال مثلًا «سنتحدث عن ذلك بعد قليل ريما».**
- **محاولة التخفيف من حدّة ما تصطنعه. فعندما تقول ما ليس هو لائقًا مثلًا، سيساعد استجماع أبوها أو أمّها لقوّتهما والتوجه إليها بقول حازم دون قسوة، مثلًا: «لا أعتقد بأنّك تقصدين ما قلتيه ريما».**
- **الحوار معها مع احترامها واحترام مخاوفها، كأن تقول لها أمّها: «أعلم انزعاجك من المشكلات الموجودة، وأنا وأبوك لا نحب وجودها ولكن نحن فيها حاليًا وسنرى ما يمكننا فعله من أجل حلّها».**

كما جميع الأدوار التي من الممكن أن يتبناها الأبناء، فإنّ وجودها والحاجة إليها ينتفي تمامًا عندما يتمكن الأبناء من الثقة بأنّ آباءهم قادرون على إدارة مشاكلهم وعواطفهم خارج دائرة أبنائهم. فيما يلي بعض الأمور التي يمكن للآباء القيام بها لمساعدة الطفل المشاكس كبش الفداء:

- اختيار الآباء ردود أفعال أكثر دقة وحكمة في الأوقات التي يقوم بها الطفل بافتعال المشكلات.
- إيمان الأبوين بأنّ الطفل الذي يفتعل المشكلات في الأسرة التي يكون فيها الأبوان في خلاف وشجار ليس طفلًا مؤذيًا، بل على الأرجح أنّه طفل لطيف ومسؤول لدرجة قبوله للقيام بتضحية كبيرة يتضرر منها هو بشكل كبير ومباشر ليس من أجل شيء سوى إسعاد الأسرة. وهو يقوم بذلك مع علمه بأن لا أحد يصنف ما يفعل على أنّه تضحية أو عمل إيجابي، بل على العكس من ذلك فهو في موقع ملامة وتقريع.
- استحضار ذلك اليقين عند التفكير بما يفعل الطفل المشاكس كبش الفداء والحديث عنه والتعامل معه.
- الحديث اللطيف معه عندما يقوم بمشكلة، وإيصال المعلومة إليه ومساعدته على معرفة التصرف الصحيح بشكل حازم ولكنّه في ذات الوقت مليء بالمحبّة بعيد عن القسوة والعنف والتجريح..

خلاصة النوع الثاني من الأدوار المبطنة: الطفل المشاكس كبش الفداء...

إنّ الطفل الذي يتبنى دور المشاكس يضع نفسه موضع كبش فداء للأسرة من أجل أن يتلقى الضربات ويحمي والديه وآخرين يحبهم. وهو يستخدم إستراتيجية تحوير مركز المشكلة من أن تكون بين أبويه لتكون بينه وبين أبويه أو بينه وبين أحدهما. وهو بذلك يشعر بسيطرة أكبر على الوضع كونه طرفًا فيه. فمن بين الأدوار الأساسية الأربع التي يمكن للأبناء أن يتبنوها، يكاد يكون هذا الدور هو الدور الوحيد الذي لا يحصل فيه الطفل على أي شيء إيجابي في مقابل ما يفعل، ويكون عرضة للذم والقسوة والعقاب فقط. فمن السهل على هذا الطفل أن يوصم بالمشاكس، المؤذي، عديم المسؤولية، العاري عن الإحساس، وغيرها من المسميات غير المنصفة، والتي لا تعبّر بأيّ شكل من الأشكال عن حقيقة قلبه المحبّ المضحّي. وهو يتعرض للظلم أكثر من غيره من الأطفال في أي مكان يتواجد فيه، إذ ما يوصم به من صفات سيئة تعمم عليه في المواقف المختلفة، وتلقى عليه التهم ببساطة حتى ولو لم تكن له يدّ في ذلك الموضوع.

النوع الثالث من الأدوار المبطّنة: الطفل المهذّب غير المرئي...

لينا ذات الـ ٨ أعوام، هي البنت المثالية التي لا تخلق مشاكل وتشارك ألعابها وتتسامح مع الجميع وتقوم بما عليها من واجبات دون متابعة. تأكل طعامها وتلعب بألعابها بهدوء، وهي ليست متطلبة ولا تتشاجر مع أحد. تساعد أمّها وتتكلم بلطف مع أبيها. كلامها مؤدب لطيف، تتنازل عما في يدها إذا طلبه أحد من إخوتها، ولا يسمع عنها أبواها سوى المديح من معلماتها وإدارة مدرستها. تكرر والدتها، «ليت جميع أبنائي مثل لينا، لم تتعبني في شيء ولا أشعر بوجودها».

هذا الطفل الذي يكفي خيره شرّه، يرى بأنّ الأسرة في وضع صعب فلا يريد أن يكون سببًا في إضافة تعقيد لها. فهو في قرارة نفسه يعتقد بأنّ أمّه وأباه عاجزان عن إدارة وضع الأسرة الحالي، وأيّ إرباك قد تكون له نتائج غير محمودة لعدم قدرتهما على التعامل السليم معه. فرحمة بهما ومساهمة منه لمساعدتهما، يقرر أن لا يريد شيئًا منهما ولا حتى انتباهًا. فهو يفعل ما يتوجب عليه القيام به بأفضل طريقة ممكنة، يحاول أن يركز على الجوانب التي تعجب أبويه ويجتهد فيها، ويقوم بما عليه من النظافة الشخصية، مؤدّب في التعامل، منظّم ويلعب بهدوء، يتنازل بسهولة فرارًا من المشكلات، ليس له طلبات، هادئ لا يكاد يشعر بوجوده أحد. وتلك الصفة التي كثيرًا ما يشار إليه فيها كجانب إيجابي يتم مدحه من خلالها: «وكأنّه ليس موجودًا».

وبتبنيهم لهذا الدور يأخذون قرارًا واحدًا نافذًا إلى الأبد..

لينا، وبالرغم من صغر سنّها إلا أنّها تعتقد بأنّ أمّها وأباها غير قادرين على إدارة أنفسهما وخلافاتهما والأسرة، فهي تعتقد بأنّهم لا يستطيعون أن يتحملوا عبئًا آخر تضيفه هي، ولا يتمكنون من التفاعل مع المتغيرات بصورة جيدة. فأفضل شيء تستطيع أن تقدمه لأمّها وأبيها هو أن ترفع عنهما عبئها، ولا تزيدهما همًا على همّهما ومشكلة على مشكلاتهما.

يختلف الأبناء الذين يتبنون دور المهذب غير المرئي عن الأبناء الذين يتبنون الأدوار الأخرى في أنّهم يفكرون عميقًا مرّة واحدة، ومن ثم يأخذون قرارًا إستراتيجيًا ويمضون فيه. فأذهانهم ليست مشغولة بالمشكلات كما الأطفال الذين يتبنون دورًا من الأدوار الثلاثة الأخرى، والذين يكون عليهم التفكير بالكيفية التي عليهم أن يقوموا بأفعال تتناسب مع أدوارهم في المواقف اليومية. فالأبناء الذين يتبنون دور المهذب غير المرئي قد اتخذوا موقف اللاموقف، ووقفوا هناك وانتهى الموضوع بالنسبة إليهم. فليس لدى هؤلاء الأبناء الكثير من الأمل في تحسين وضع أسرهم، وهم لا يريدون أن يساهموا في تحسينه غالبًا لأنّهم يعتقدون بأنّ ذلك غير ممكن. ولكنّهم في المقابل يسعون كي لا يصبح الوضع أسوأ مما هو عليه، ولا يأخذ منحى يصعب السيطرة عليه، أو تطرأ عليه تغييرات غير متوقعه لا يعرف أبواه كيفية التعامل معه. وهم في ذات الوقت لا يريدون أن يشكلوا عبئًا إضافيًا على أبويهم، فتكون مساهمتهم في الأسرة هي رفع أنفسهم من قائمة مصادر الثقل والقلق.

ويتبنون ذلك الدور في حين يعتقد آباؤهم بأنّهم صغار لا يستوعبون كثيرًا...

تعلمت لينا منذ صغرها بأنّ الخلافات الموجودة في أسرتها كبيرة مع أنّها لا تفهم سببها وماهيتها. وهي شاهدت مرارًا وتكرارًا الكيفية التي تشتد فيها الخلافات ويرتفع معها الصراخ أو يهيمن الصمت الكئيب على المنزل، ويبقى غضب أبوها ودمعة أمّها لفترات دون أن يتغير شيء للأفضل. كما وتلاحظ ما يفعله إخوتها لاحتواء الأزمات التي تحصل في الأسرة، فتريد أن تكون بعيدة تنشغل في عالمها ولا تتسبب بمشكلة لأحد، فهي قد درّبت نفسها جيدًا بأن لا تريد شيئًا من أبويها ولا تريد أن تزداد احباطًا. فكل ما تريد هو حفظ التوازن الموجود بأقل أضرار ومفاجآت ممكنة.

يختار الأبناء تبني دور المهذب غير المرئي بعد تفكير عميق يصلون معه لنتيجة بأنّ وضع الأسرة ليس جيدًا ولا أمل في أن يتحوّل لجيد يومًا ما. وهم يرون أنفسهم أمام خيارين: إما أن يكونوا جزءًا من المعركة الظاهرة بين والديهم والتي تكون على هيئة شجارات، أو المعركة الخفية التي تكون على هيئة غمزات وكلمات جارحة مبطنة. أو أن يكونوا خارجها. وفي ذلك لديهم خياران:

الأوّل: أن يكونوا داخل دائرة الأسرة يتواصلون ويحصلون على احتياجاتهم ويساومون عليها، وهو ما يتطلب أن يتواصلوا بشكل مباشر مع والديهم والتعامل معهم في حالاتهم المزاجية المختلفة. وبما أنّ خلافات أبويهم مستدامة، فهم لا يرون بأنّ ذلك ممكنًا. فبحسب مشاهداتهم، لا يبدو لهم بأنّ آباءهم قادرون على تحمل ما لديهم من مسؤوليات واستحقاقات، وذلك يعني بأنّهم غير قادرين على تحمل عبء إضافي أيضًا.

الثاني: أن يكونوا خارج دائرة الأسرة ولا يكونون عبئًا على والديهم، والذي يعني أيضًا أن يكتفوا بالحد الأدنى من التواصل، ويقوموا بكل ما يمكنهم كي يتركوا الأمور تجري كما هي ولا يتسببوا في إضافة أي مشكلة أو أن تكون لهم يد في خلق وضع غير محبذ لأبويهم. فهم يختارون أن يحتفظوا بفرحهم وحزنهم لأنفسهم، ولا يريدون للنظام الحالي الموجود في الأسرة أن يختل خوفًا من احتمال تعقيد الأمور بأي شكل من الأشكال.

يوجد من يستفيد من الدور الذي يتبنّاه الطفل المهذّب غير المرئي...

كريم وليلى هم أكبر المستفيدين من دور لينا في المنزل. فلينا مسالمة جدًا ولا تكون طرفًا في نزاع مع أحد، وقد خففت عليهم عبء متابعتها في الدراسة وفي القيام بما هو مطلوب منها. وبخلاف إخوتها، فلينا ليس لديها طلبات تذكر، وهي تقبل بما هو موجود ونادرًا ما تتفوه بأي اعتراض. وتتصرف بأدب يقدّر الجميع لكريم وليلى اسلوبهما التربوي الذي أنتج بنت كلينا، فهي الفتاة التي يتم ضرب المثل بها لإخوتها ولأطفال العائلة.

إنّ الوالدين والقائمين على رعاية هؤلاء الأبناء هم المستفيدون الأساسيون من تبنّيهم دور المهذب غير المرئي. فيعتبره الأبوان الطفل المؤدب الذي تفخر به الأسرة أمام الآخرين وتشير إليه على أنّه نتاج تربيتها السليمة.

وبما أنّ هؤلاء الأبناء يأخذون شخصياتهم للمدرسة أيضًا، فهم في الغالب يكونون كذلك مع المعلّم أيضًا، فيعجب بهم المعلم كونهم لا يشكلون تحديًا له. فيمكن أن يعتبرهم من الطلبة المفضلين لديه لأنهم كانوا متفوقين دراسيًا، ويمكن أن يهملهم ولا يعيرهم اهتمامًا إن كانوا من الطلبة الضعفاء أكاديميًا. ومع ذلك، فينسلخ هؤلاء الأبناء أحيانًا من أدوارهم التي تبنوها عندما يتواجدون في المدرسة، ويصبحون شخصيات مزعجة للمعلم، مما قد يدخل الوالدين في جدل مع المعلم، إذ يصعب على الوالدين تصور فكرة أنّ ابنهم المؤدب المهذب هو ما يقوم بوصفه المعلم.

الأضرار على الطفل المهذب غير المرئي مختلفة المصادر...

لينا محبوبة ومقدّرة من الكبار ولكنّها ليست كذلك من قبل إخوتها وأقرانها، فهي مصدر إزعاج وتهديد إليهم. فالكبار يلاحظون في شخصيتها، ولكنّهم يفشلون في ملاحظة ما يمتلكه الآخرون من جوانب إيجابية حين يقارنونهم بلينا. كما ولينا تتعرض للتنمر في المدرسة من زميلاتها ويتم ابتزازها بسهولة للحصول على ما تمتلك من نقود أو غذاء في حقيبتها.

إنّ الأضرار التي تصيبه تكون مرتبطة في العلاقات والتواصل أساسًا، ومنها:

- إنّ الضرر الأوّل الذي يقع عليه عادة ما يكون من إخوته وأبناء العائلة الممتدة والأصدقاء المقربين. فهم يقارَنون به، ويتعامل معه الآباء على أنّه الطفل المثالي الذي نجحت معه التربية في الوقت الذي فشلت مع الآخرين.
- هناك يأس حاكم بداخله وحالة من العجز عن تغيير الأوضاع. فالخيار الذي قرّر اتخاذه هو التأقلم والتعايش مع ما هو موجود كما هو، ومن شأن ذلك أن ينعكس على قراراته الحياتية مستقبلًا.
- من السهل أن يقع فريسة للظلم والاستضعاف والتنمر في أماكن تواجده في المنزل وخارجه.

ولذلك الدور انعكاسات على المدى القريب...

تعيش لينا حالًا متناقضًا فيما يتعلق بحقيقة الشخصية التي تحب أن تكون عليها، فلولا خلافات والديها لربما كانت شخصية مختلفة تمامًا. كما وتضطر لينا لأن تمثل دور البنت المثالية، في حين بداخلها رغبة جامحة في تجربة الحياة الطفولية بكل ما تحمل من شقاوة وعناد وإثارة والقيام بأفعال تحبها هي ولا يؤيدها والداها. ومع أنّ لينا تشعر بالغضب لما يدور حولها في الأسرة، إلا أنّ من الصعب عليها التعبير عن ذلك الغضب. فيتراكم الغضب المكبوت والشعور بالعجز بداخلها مما يؤدي بها لتجربة حالات قريبة من الاكتئاب، وهو ما يفسره والداها حينها بأنّها ازدادت تهذبًا.

لا يعيش الأبناء الذين يتبنون دور المهذب غير المرئي حياة طبيعية في أبسط صورها، فهم يقنعون أنفسهم بأمور هم يعلمون بأنّها ليست صحيحة، تنتج عنها عدّة صعوبات منها:

- إنكار احتياجاتهم الأساسية.
- كبت رغباتهم والتظاهر بعدم وجودها لأمور يميل إليها لمن هم في أعمارهم.
- قمع المشاعر السلبية التي قد يشعرون بها دون حلّها والتظاهر بالهدوء في قبالها.
- تقمص شخصية الطفل المؤدب المهذب وقمع رغبات الطفولة والمشاغبة والمشاكسة بالحد الاعتيادي المعتاد بين الأطفال.

وانعكاسات بعيدة المدى...

تتعلم لينا بأنّ المشكلات ليست للمواجهة والحل، بل يجب عليها أن تحصل على إستراتيجيات للابتعاد عنها واجتناب الوقوع فيما لا تحبّ. وبأنّ الحفاظ على المظهر الهادئ الساكن يرضي الأطراف الأخرى ويمنحهم الطمأنينة، فلا يكونون بحاجة للقلق عليهم وحمل همّهم.

هناك تأثيرات عدّة على المدى البعيد للأبناء الذين يتبنون دور المهذب غير المرئي من أهمها:

- تعلّم التأقلم السلبي، فلا يقومون بمحاولات لتحسين أوضاعهم أو تصحيح ما هو خاطئ في بيئتهم.
- يعيشون انفصامًا بين أفعالهم ودوافعهم، فيقومون بأفعال تبدو جيدة ولكن من الممكن أن تكون دوافعهم مختلفة تمامًا عمّا تبدو عليه.
- يكونون أقرب لليأس وللاستسلام، وتتقلص احتمالات انتباههم لما هو إيجابي في حياتهم بعدما قاموا بتقييم الوضع القائم بالسلبي.
- الاكتئاب والانفصال عن المشاعر.
- تجنب فرص التطوّر من أجل تجنّب احتمالات الوقوع في المشكلات.

إحباط كبير دائم، وإحباطات أصغر مستمرّة...

ترتفع التوقعات من لينا شيئًا فشيئًا لتبقى مضربًا للمثل في الأدب والتهذيب، فوالداها لا يُحاسبونها على الأخطاء فقط، بل على عدم قيامها بأمور كمالية. ففي زيارة لأصدقاء العائلة، أرادت طفلتهم أن تصطحب معها للبيت لعبة لينا، فاستجمعت لينا شجاعتها بصعوبة ورفضت إعطاءها إيّاها على استحياء. فشعرت والدتها بالإحراج ووبختها بحضورهم، واستكملت توبيخها بعد مغادرتهم. ولينا تعلم بأنّ والدتها لم تكن لتفعل ذلك لو كان أحد أبنائها الآخرين في ذات الموقف.

لا يتعرض الأبناء الذين يتبنون دور المهذب غير المرئي لإحباطات كبيرة بشكل يومي مستمر، إذ هم قد استسلموا لإحباط كبير في بداية تبنّيهم لدورهم الذي تبلور وانبثق من ذلك الإحباط. ومع ذلك فهم يتعرضون لإحباطات أصغر بشكل مستمر. فأخطاؤهم ملحوظة، وخطأ واحد منهم يعتبر كبيرًا في حين يمكن لأخطاء أكبر تصدر من إخوتهم أن تمضي بسلام. كما ونسبة التوقع منهم تكون أعلى، فهناك دائمًا ما يمكنهم فعله ولكنّهم قصروا فيه من وجهة نظر والديهم.

يمكن للآباء المساعدة بخطوات فاعلة...

الفعل الأهم الذي يمكن للآباء القيام به هو إبعاد مشكلاتهم وخلافاتهم عن أبنائهم وحلّها والتعامل معها فيما بينهم. وفيما يلي بعض الأمور التي من شأنها أن تساعد:

- مبادرة الأبوين في الانخراط والتحاور معهم وسؤالهم عن أحوالهم ويومهم واهتماماتهم.
- عدم التركيز على هدوئهم، بل على جميل الأخلاق والصفات والمميزات التي يتحلون بها والقيم التي يحملونها. والبعد عن وصمهم بصفة الهادئ المهذب أمام الآخرين، ومدحه بالصفات الأخرى التي يمتلكونها.
- الحديث معهم عن بعض المشكلات الشخصية أو الأسرية البسيطة التي يتمكنون من فهمها واستيعابها دون أن تثير مخاوفهم وقلقهم، وأخذ رأيهم في الحلول الممكنة، ومنح قيمة للحلول التي يقترحونها.
- العمل على بناء ثقافة في الأسرة مفادها بأنّ المشكلات ليست محبّبة ولكن يمكن التعلّم والتطوّر من خلال العمل على حلّها.

وما يبقي ذلك الدور حيًا متحركًا هو صعوبة التوقف عنه...

المشكلة الكامنة لدى الأبناء الذين يتبنون هذا الدور هي أنّهم اتخذوا موقفًا لا يحتاج لمحرّك، بل هم يحتاجون لمحرك لتغييره مما يجعل التوقف عنه أصعب. فيما يلي بعض الأمور التي تعزز إيمانهم بأنّ الدور الذي اختاروه صحيحًا متناسبًا معهم ومع ظروفهم:

- البعد عن الكثير من المشكلات كونهم ناظرين لها وليسوا جزءًا منها.
- الاعتزاز بالشخصية الاعتبارية المهذبة المثالية التي يكتسبونها والتي تمنحهم احترامًا.
- مقارنة الأطفال الآخرين بهم وطرحهم كقدوة لهم من قبل الآباء لتحفيز أبنائهم بالاقتداء بهم.
- المديح والإطراء الذي يتلقونه في محيط الأسرة أو خارجها.

خلاصة النوع الثالث من الأدوار المبطنة: المهذب غير المرئي.

الطفل الذي يتبنّى هذا الدور يصبح الطفل المثالي الذي يتمنّاه الأبوان، وتبدو النتائج جيدة بشكل كبير بالنسبة للأبوين بحيث لا يودان تغييره. ولا ينتبه الآباء بأنّ هذا الوضع المثالي لهؤلاء الأبناء ليس نابعًا من إيمانهم بقيم صحيحة، ولكنّه ناتج عن إحباط ويأس بعدم قدرة أبويهم على إدارة الأسرة، الانتباه لهم ومنحهم الطفولة التي يحتاجونها، فبتغيير الظروف قد تتغير شخصية هؤلاء الأبناء، ومن الممكن حينها أن يقوموا بتصرفات تبدو سليمة وصحيحة ولكنّها نابعة من قيم غير سليمة.

النوع الرابع من الأدوار المبطنة: الطفل المضحك الحبوب

كمال ذو الـ ١٤ عامًا هو الطفل الذي يحب الجميع التواجد حوله. فهو على الدوام يحمل في جعبته قصة يضحك منها الآخرون، ولديه حركات غير متوقعة تثير الدهشة المرح معًا. وعندما يتشاجر أبواه يقول طرفة أو يقوم بحركة مثيرة تجعلهما يضحكان أحيانًا، وفي أحيان أخرى يعتبران ما قام به مزاحًا ثقيلاً في وقت غير مناسب، فينهال عليه أحدهما أو كلاهما بالإهانة والتوبيخ. ولكن بالنسبة لكمال: «ما الضير في ذلك؟ سأحاول مرّة أخرى».

هذا هو الطفل الخفيف اللطيف الذي يكون وجوده مصدر فرح في المنزل وغيابه واضح. تطلبه الأسرة وتتفقده وتغدق عليه من الكلمات الجميلة واللطيفة. يفترض من يراه بأنّه طفل سعيد لا يحمل همًا ولا غمًا، مع أنّه ليس كذلك أبدًا. فهو يضع نفسه موضعًا للسخرية أحيانًا، ويقول كلمات ويفتعل حركات مثيرة للضحك كنوع من الوقاية من المشكلات، إيمانًا منه بأنّه عندما يكون جو المنزل مبتهجًا ومزاج أفراده أفضل، ستقل احتمالات نشوب المشكلات بين أبويه. وعندما تبدأ شرارة الخلافات والشجار، فإنّ من شأن تلطيف الأجواء بالضحك والمرح أن يقلص احتمالات تفاقم الخلافات.

يختار الأبناء هذا الدور أملًا في الحصول على نتيجة هامّة...

لكمال قاعدة تبناها: «إذا استطعت أن أجعل أمي وأبي يضحكان، فهما سيحبان بعضهما البعض أكثر، وسيحبوننا نحن أبناءهما أكثر أيضًا. وإن فعلا ذلك فإنّهما سيتحدثان ويتعاملان مع بعضهما البعض بشكل أفضل، والنتيجة ستكون إنّ خلافاتهم ومشاكلهم ستقل وسيكون المنزل أهدأ».

يختار الأبناء أن يأخذوا دور الطفل اللطيف المضحك عندما يعتقدون بأنّ هناك مشكلات موجودة في الأسرة وتحديدًا بين أبويهم بشكل دائم، فيفكرون بشكل استباقي وإستراتيجي. فهم يأخذون خطوة تجاه تحسين الأوضاع عندما تقع المشكلة بالقيام بما هو مضحك ومرح، ولكنّهم أيضًا يأخذون خطوات استباقية بحيث يقومون بما يمكن أن يلطف الجو العام ويجعله مريحًا للمزاج العام ولمزاج الأفراد في الأسرة.

يختار دوره من السن الذي يستطيع فيه ربط فكرة بتجربة...

منذ أن كان كمال صغيرًا، كان يفرح عندما يرى أباه في المنزل مبتسمًا مستبشرًا، فهو يعلم بأنّ ذلك يعني بأنّ احتمال نشوب الخلافات قد تقلص. وترتفع دقّات قلبه ويزداد خوفه وقلقه عندما يدخل أبوه المنزل وهو منزعج، أو عندما تكون أمّه عصبية أو غاضبة من أمر ما. فهو قد عرف الوصفة السحرية، وأصبح عليه الآن العمل على تطبيق تلك الوصفة في الأسرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

لا يوجد سن معين يقوم فيه الأبناء باختيار ذلك الدور، ولكنّهم يتعلمون تلك الاستراتيجيات والمهارات بالتجربة من خلال ربط فكرة وتجربة:

الفكرة: عندما يكون الجو مرحًا في المنزل ستتقلص المشكلات.

التجربة: سبق أنْ قام بأمور صغيرة بدت لطيفة وانتبه بأنّها قد راقت لأفراد الأسرة وأصبح الجو فيها أكثر هدوءًا ولو لفترة قصيرة.

فيدمج الفكرة بالتجربة ليقدم نفسه كجندي مجهول لمساعدة الأسرة على تقليص مشكلاتها الناتجة أساسًا من الخلافات المستمرة بين أبويه.

والمستفيدون كثر...

الجميع مستفيد من وجود كمال، أمّه وأبوه وإخوته وحتى أمل الصغيرة. كما أنّ عائلة أمّه وعائلة أبيه تفتقدانه بقوّة عندما يتغيب عن التجمعات العائلية، وفي أحيان كثيرة يطلبونه ليكون معهم من أجل أن يضفي جوًا من المرح والضحك لتجمعهم. وبالطبع، فإنّ كمال يشعر بالمتعة من ذلك الاهتمام والانتباه والطلب عليه.

عادة ما يكون جميع أفراد الأسرة والعائلة الممتدة والأصدقاء المقربين مستفيدين من الدور الذي يتبناه الطفل المضحك الحبوب، إذ يعتبرون وجوده مصدرًا لمرح بريء يصعب التنبؤ بما يمكن أن يقول أو يفعل ليثير الضحك لديهم. كما وينتاب الطفل الذي يتبنى هذا الدور شعور بالرضا، إذ يكون محبوبًا ومطلوبًا يميل الآخرون للتعامل معه بلطف عادة.

الأضرار لا تبدو واضحة لأحد...

على رغم ظاهر كمال المرح والمبتسم والفرح، إلا أنّ لديه مشاعر متضاربة بداخله. فتفكيره يدور حول المشكلات والأذى الذي يتناسب مع مشاعر الحزن والغضب، ولكنّه لا يستطيع التعبير عن تلك المشاعر حتى مع نفسه. فهو عليه أن يكون في وضع ذهني مرح، ويتمكن من اختلاق الضحك والمرح في كل الأوقات. فحتى عندما يكون حزينًا لأي سبب كفقدان أحد من أحبته، لا يتوقع منه أن يعبر عن حزنه كما الآخرين، ويصعب على الآخرين تحمله والتعامل السليم معه بما يتناسب ومشاعره، فما يتوقع منه هو أن يكون موضوعًا للمرح وليس للحزن.

يعيش الأبناء الذين يتبنون دور المضحك الحبوب تناقضًا في دواخلهم. ففي الوقت الذي تكون فيه أذهانهم مشغولة ومتصلة بالمشكلات والخوف منها والتبعات والمشاعر السلبية التي تليها، يكون عليهم في ذات الوقت التفكير في النقيض الذي يوصل للمرح والضحك. فانطلاقتهم حزينة، وهدفهم ليس الوصول لمرحلة المرح والضحك من أجل المرح والضحك، بل هما وسيلة لتقليص احتمالات الحزن والأذى عمّن يحبون.

وعدّة تأثيرات قريبة المدى...

لكمال أصدقاء كثيرون يحبون التواجد معه، ولكنّهم ليسوا موجودين معه بذلك القدر عندما تكون لديه مشكلة. وكذلك المحيطون به من عائلة وأصدقاء لا يحبون سماع مشاكله، ولا أن يتكلموا معه في مواضيع جادة أو يستمعوا لرأيه فيها، فهو في تصنيفهم بارع في موضوع أهم يتعلق بخلق أجواء جميلة في المكان الذي يتواجد فيه. وذلك يتسبب له بانزعاج وإحباط في آن، وعادة ما يختار التعبير عن ذلك الانزعاج والإحباط بالضحك والنكات أيضًا، فيزداد تناقضًا وإحباطًا. ففي إحدى المرات قال رأيه بشكل جاد في موضوع مهم كانت تتحدث فيه العائلة مع الأصدقاء، ولم يؤخذ ما قاله على محمل الجد. وعندما قال ذات الكلام شخص آخر في ذلك التجمع تم قبول ما قاله واعتبر رأيًا سديدًا.

بالرغم من أنّه يبدو للوهلة الأولى بأنّه لا وجود لتأثيرات سلبية تذكر على المدى القريب، إلا أنّ الأبناء الذين يتبنون دور المضحك الحبوب يواجهون العديد منها:

- هناك أوقات لا يتم تصنيف ما يقومون به بأنّه مضحك، فيكونون عرضة للسخرية ولسماع كلمات من شأنها أن تتسبب لهم بالإحراج والتقليل من شأنهم.
- يضطر الأبناء الذين يتبنون دور المضحك الحبوب للتظاهر بالإيجابية والمرح والفرح بشكل دائم بغض النظر عن حقيقة ما يمرون به.

- لا يتم التفاعل مع مشاعرهم بشكل جاد خاصة السلبية منها مثل الحزن والغضب والإحباط، ويتعاملون معهم على أساس أنّ ذلك لا يناسبهم ولا يليق بهم وكأنّه ليس من حقّهم.
- يصعب عليهم الحصول على أصدقاء حقيقيين. فالكثيرون متواجدون معهم يستمتعون بروحهم المرحة وما يضفون من البهجة، ولكنّهم ليسوا بالضرورة أصدقاء يهتمون لأمره ويقفون معه عندما يمرون في مأزق لا يتمكنون معه بالقيام بما يضحك أو يثير المرح.

وتأثيرات بعيدة المدى...

إنّ التأثيرات بعيدة المدى التي تصيب الأبناء الذين يتبنون دور المضحك الحبوب لا تقل أهمية عن تلك التي تصيبهم على المدى القريب، ومن أهمها:

- يكونون لأنفسهم أنماطًا للهروب من المشكلات بدلًا من مواجهتها وحلّها.
- يجدون صعوبة في التعامل مع المشاعر السلبية والأوضاع الصعبة والظروف الحياتية التي تجلب حزنًا وفقدانًا.
- تتكون لديهم شخصية محبوبة يكون عليهم الحفاظ عليها كما هي كي لا يخسروا الذين انجذبوا إليهم بسبب دورهم المضحك المرح. فمن الوارد جدًا أن يشعروا بأنّهم مطلوبون ومحبوبون ليس بسبب جوهرهم وشخصياتهم الحقيقية، بل بسبب الجو الذي يخلقونه، والذي لو فقدوا القدرة على خلق ذلك الجو لما تبقى معهم الكثيرون ممن هم موجودون الآن.

ولإحباطاتهم حالة خاصة...

بالرغم من الأوقات الجيدة التي يعيشها كمال ويحصل فيها على الاهتمام والتمجيد لشخصيته المرحة، إلا أنّ في الكثير من الأحيان تتم مواجهته بالسخرية منه أو الغضب مما يقول أو يفعل. فهو واجه ذلك كثيرًا عندما قام بفعل أو تفوّه بكلمات اعتبرها آخرون بأنّها تنم عن قلة أدب أو عدم احترام في الوقت الذي لم يكن هو يقصد ذلك بتاتًا. كما والمدرسة هي من أكثر الأماكن التي يعيش إحباطًا فيها.

فقد تم استدعاء ولي أمره أكثر من مرّة لأنّ المعلم اعتبر مرحه مشاغبة في الدرس وعدم احترام له. وفي إحدى المرات اعتبر المعلم العمل المضحك الذي قام به كمال هو تحدي له.

ما يجعل الإحباطات أكثر أيلامًا بالنسبة للأبناء الذين يتبنون دور المضحك الحبوب هي عدم قدرتهم على الحديث عن تلك الإحباطات أو التعبير عنها للأفراد الذين تسببوا لهم بها. فيما يلي جوانب من الاحباطات التي يكونون عرضة لها:

- هناك خيبات تصيبهم جراء عدم تقدير وتفاعل الآخرين خارج نطاق الأسرة بالطريقة التي يتم التفاعل فيها معهم داخل الأسرة.
- من الممكن أن يعتبرهم المعلم مخرّبين مشتتين للانتباه في الفصل، ولا يرى بأنّ ما يقولون ويفعلون مضحكًا، بل وقد يصنفه على أنّه استهتار وعدم احترام، في حين يكون ما قاموا به من أجل تلطيف الأجواء فحسب.
- من الوارد جدًا أن يتم تعنيفهم وإهانتهم عندما يختارون الأوقات الخطأ للقيام بدور المضحك كالأوقات الحاسمة أو الصعبة أو الحزينة، أو حين لا يكون فرد من أفراد الأسرة في مزاج يساعده على التفاعل الإيجابي معهم.

العديد من المحفزات والمحركات موجودة لبقاء الدور قائمًا...

كل الإشارات التي يحصل عليها كمال من أسرته وخارجها تدفعه نحو الاستدامة في دوره. فلا يتغيب عن تجمع عائلي أو مجموعة أصدقاء حتى يصل لسماعه بأنّهم افتقدوا وجوده، وبأنّ التجمع لم يكن شيقًا كما لو كان موجودًا فيه. فلا مجال لكمال للتفكير في التوقف عن دوره، فذلك يعني بالنسبة إليه تغييرًا كبيرًا في الشخصية التي يراها الآخرون، وخسارة لنمط حياة وعلاقات اجتماعية تقدره وتعترف بأهميته.

إنّ ما يحفّز بقاء دور الأبناء الذين يتبنون دور المضحك الحبوب هو في الغالب النتائج الفورية التي يحصلون عليها، ومن أهمها:

- الانتباه والترحيب الذي يحصلون عليه فور وصولهم لمكان ما، أو خلال تواجدهم فيه.
- الشعور بالقدرة على التأثير وصناعة الفرق في تغيير حل ومزاج أفراد ومجموعات في الأسرة وخارجها.
- الإشارة إليهم كأفراد لهم قيمة، وتفقدهم وطلبهم عندما يتغيبون.
- الفرح الذي يشاهدونه في عيون ووجه من يحبون.

وكما دائمًا، للآباء قدرة على المساعدة وصناعة التغيير...

كما في جميع الأدوار التي تبناها إخوة كمال، فإنّ مصدر المساعدة الأوّل والأهم هو تقليص كريم وليلى لخلافاتهما، والبعد عن الشجار مع بعضهما أمام أبنائهم وكمال أحدهم.

ولكن ما يحتاجه كمال بصورة خاصة هو استرجاع قيمته الحقيقية كإنسان بغض النظر عن شخصيته المرحة كانت أم لم تكن. وتقع على والديه المسؤولية الأكبر في مساعدته على تكوين هوية إنسانية وليست هوية مرحة، ويساعدهما على تحقيق ذلك معرفتهما بمحاسن كمال والجوانب المميزة في شخصيته التي لا تتعلق بالمرح. فمثلًا كمال حريص على الوفاء بوعده حتى ولو وعد طفلًا صغيرًا، ولو ما وعد كان تافهًا. هذا بالإضافة لحبّه مساعدة الآخرين بما يمكنه دون أن يقول أو يفعل ما يُشعر من ساعده بالإحراج أو بأنّه أثقل عليه. فهاتان صفتان جميلتان يتحلى بهما كمال، ويمكن لأبويه أن يذكرا تلكما الصفتين عندما يريدان أن يتحدثا عن إيجابيات وتميّز في شخصية كمال.

من ناحية أخرى، اعتاد كمال ألا يؤخذ بالاعتبار ولا يُمنح لرأيه وزنًا في الأمور الجادة مثلًا، فيمكن لكريم وليلى مساعدة كمال في ذلك، كأن يطلبان رأي كمال بالتحديد عندما يناقشان أمرًا مهمًا وجادًا، ويحترمان ما يقول حتى ولو لم يتفقا معه. ويطلبان منه القيام أمور جادة ويكلفونه بمسؤوليات لها معنى.

كلما كبر الأبناء الذين يتبنون دور المضحك الحبوب، أصبح تخليهم عن الدور أصعب. فما يحصلون عليه من انتباه يجعلهم يركزون على ما يفعلون وينسون أحيانًا السبب الذي من أجله تبنوا ذلك الدور. فقد يتلاشى ذلك السبب بإصلاح العلاقات بين الأبوين أو حتى بوفاة أحدهما، ولكنهم يبقون متمسكين بدورهم الذين تبنوه. وفيما يلي بعض الأمور التي يمكن للآباء القيام بها للمساعدة:

- البعد عن المبالغة في الضحك عندما يقومون بما هو مضحك ومثير، وعدم انتظار وتوقع قيام ما هو مضحك منهم.
- عدم الحديث مع الآخرين عن شخصيهم المرحة وتقديمهم للآخرين على أنّهم مرحون مضحكون، والاستعاضة عن ذلك بتقديمهم للآخرين بجوانب جميلة أخرى في شخصياتهم.
- مساعدتهم لمعرفة جوانب الخطأ عندما يقومون باختيار أوقات أو ظروف خاطئة للقيام بما هو مضحك، والقيام بذلك بلطف دون كسر أو إحراج لهم أمام أنفسهم أو الآخرين.
- التأكد من أنّ لا ترتبط هويتهم بدورهم. فلا يكون الطفل المضحك الحبوب الذي يكون تواجده مصدر مرح للجميع، بل يكون الطفل الاعتيادي الذي لديه قدرة على أن يكون لطيفًا ويضيف نسبة من المرح للجو العام الذي يتواجد فيه. فيكون ذلك فعلًا يقوم به، وليست هوية يوسم بها.

خلاصة النوع الرابع من الأدوار المبطنة: الطفل المضحك الحبوب.

الطفل المضحك الحبوب هو الذي يفكر ويجتهد لكي يقوم بخلق جوٍ من المرح والضحك في المنزل من أجل إيجاد أجواء تقلص من احتمالات نشوب الخلافات، وهو في ذات الوقت يعمل على تحسين مزاج أفراد الأسرة لتكون ردود أفعالهم على المشكلات أقل شدة وعنفًا. وهو يكون طفلًا مرغوبًا يحب الآخرون تواجده معهم لما يضيف لهم من مرح. ولكن ذلك لا يعني بأنّه طفل مرح من الداخل أبدًا، فما دفعه لاتخاذ هذا الدور هو الألم والحزن وليس الفرح والإثارة. وما يكون مؤلمًا بالنسبة إليه هو أنّه يكون مقبولًا بشكل أكبر من الآخرين ومرحبًا به منهم عندما يُظهر مرحه وضحكه، ولا يتم الانتباه للمشاعر السلبية التي قد تنتابه كأيّ إنسان آخر. كما ويصعب تحمله حين يكون في وضع حزين أو غاضب أو محبط، ويحاول الآخرون الضغط عليه ليرجع للشخصية التي عهدوه عليها دون الاهتمام لحقيقة ما يحمل من مشاعر ومساندته.

يمكن للأبناء أن يتبنوا أكثر من دور في آن، ولكن بطبيعة مختلفة...

هناك دائمًا دور واحد مهيمن يتبناه الطفل في الأسرة ويكون هو الغالب في أكثر الأوقات، ولكن من الممكن أن يأخذ أكثر من دور في أوقات مختلفة. فمن الممكن مثلًا أن يكون الغالب هو دور المشكلة كبش الفداء، ولكنّه يأخذ دور المدافع البطل لحماية أمّه عندما تزورهم جدته التي يحبها كثيرًا، ولكنّه يعتقد بأنّ أباه يكون قاسيًا على أمّه عند وجودها. فهذا دور ثانوي يتكرر في ظروف معينة فقط، ويبقى دوره الأساسي هو المشكلة كبش الفداء.

من المهم الحذر عند ملاحظة الإشارات...

ليس كل طفل مهذّب هو طفلًا قد تبنّى دور المهذب غير المرئي، وليس كل طفل مرح قد تبنّى دور المضحك الحبوب، وليس كل طفل قام بالدفاع عن والدته هو طفل قد تبنّى دور المدافع البطل، وليس كل طفل يتورط في مشكلات هو طفل قد تبنّى دور المشاكس كبش الفداء.

فمن الممكن أن تكون أفعال يقومون بها ليست لها صفات الأدوار التي تم التطرق إليهما سابقًا. فما تم مناقشته هنا يمنح الوالدين إشارات غاية في الأهمية لتقييم حال أبنائهم خاصة عندما تكون هناك خلافات بين الوالدين مهما كانت الطريقة التي تظهر بها تلك الخلافات ويعرف عنه الأبناء، شجارًا كانت أو خصامًا أو كلمات جارحة أو أي نوع آخر.

وتكون لتلك الإشارات أهمية خاصة إذا كانت الإجابة «نعم» على سؤال أو أكثر من الأسئلة التالية:

- هل ما يقول ويفعل الطفل يتكرر في مواقف مختلفة؟
- هل هناك مشكلة بين الوالدين يرى الأبناء أثرها حتى ولو لم يعرفوا عن تفاصيلها؟
- هل هناك مشاكل وخلافات بين أفراد في الأسرة من شأنها أن تحدث توترًا في الأسرة بأكملها؟
- هل يسمع الأبناء من كلي والديهما أو من أحدهما كلمات تدل عن عجز أو إجبار أو عدم رضا عن حياتهم مع الآخر؟
- هل تجتاح أجواء المنزل مشاعر قلق أو توتر أو حذر؟

ليس كل مشكلة أسرية لها تأثير سلبي على الأبناء...

لا توجد أسرة خالية من المشكلات تمامًا، ولكن توجد أسرة يتعامل فيها الزوجان مع خلافاتهما في إطار الزوجية، ولا يدخلا الأبناء طرفًا فيها بشكل مباشر أو غير مباشر. فهما...

- يلتزمان باحترام بعضهما البعض أمام أبنائهما، ولو كانا في حال اعتراض وعدم رضا.
- يتجنبان الحديث بالشفرات والغمزات التي تتضمن كلمات جارحة يوجهها كل طرف للآخر.
- يتحملان مسؤولية تربيتهما لأبنائهما بشكل مشترك ويبتعدان كل البعد عن إلقاء الملامة على بعضهما البعض عند حدوث مشكلة، أو عند إخفاق أبنائهما في جوانب هامة من حياتهم.
- لا يمنّان على بعضهما البعض عند قيامهما بواجباتهما الأبوية والزوجية والأسرية.

إنّ الأسر التي تتمكن من أن توصل الرسائل التالية لأبنائها تساهم في تقليص التأثير السلبي للمشكلات والخلافات الزوجية على أبنائها بشكل كبير:

- «أنا وأبوك» \»أنا وأمك» نحبك كثيرًا ومحبتنا لك لا تتأثر بأي خلاف يحصل.
- هناك مشكلة بيني وبين أمّك\أبوك، ولكن تلك المشكلة ليس لك علاقة بها أبدًا.
- نحن كبار قادران على التعامل مع مشكلاتنا.
- مهما كنا مختلفين ومهما حصل بيننا، فأنت أولوية في حياتنا ونحن نعمل معًا على إسعادك.

هناك احتمال أن تتغير شخصية الأبناء عندما يكبرون، ولكن...

إنّ الأسباب التي على أساسها يتبنّى الأبناء أدوارهم معقدة ومتجذرة في قناعاتهم وعواطفهم وفهمهم للحياة. فهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

الكثير منهم يمضون حياتهم حاملين تلك القناعات والأفهام المغلوطة، ويستمرون في جني آثارها وتحمل تبعاتها في مفاصل حياتهم المختلفة، ويرمون بآلامهم ومشكلاتهم على الآخرين الذي يلتقون بهم في مسيرة حياتهم، وعلى أسرهم حين يصبحون بدورهم أزواجًا وآباء.

والقليل من ينتبه لقناعاته وما تبنّاه من مفاهيم مغلوطة عندما يكبر، ويتأمل بالضرر الذي يمكن أن يلحق به وبعلاقاته وبأسرته، ويقرر مراجعة قناعاته بوعي، ويصحح منها ويغير، ويجعل كل قطعة من تلك المفاهيم في مكانها الصحيح.

والقليل القليل ممن عرف الضرر وقام بعملية تصحيح وتغيير قناعاته ومفاهيمه، ومن ثمّ أخذ قرارًا إنسانيًا يمنح نفسه من خلاله فرصة ليكون إنسانًا قياديًا يأخذ على عاتقه توعية الآخرين ومساعدتهم لتخطي تلك المراحل بعدما قطع شوطًا في مساعدة نفسه.

وكآباء، نتذكر الوصفة السحرية دائمًا...

- الابتعاد عن الشجارات وعن مناقشة الخلافات الحادة أمام الأبناء.
- تطمين الأبناء بأنّهم محبوبون من أبويهما مهما حدث.
- عدم إلقاء الملامة على الأبناء في المشاكل التي تتعلق بالكبار خاصة تلك التي تقع بين الأبوين، واتهامهم بأنّهم هم السبب في تطور الوضع لما آل إليه.
- التركيز على الأبناء والتأكيد عليهم بلطف بأنّ بناء مستقبلهم ودراستهم وقيامهم بالأفعال التي تحمل قيمًا ومبادئ راقية هو ما يفرح أبويهما، وهي الهدية التي يسعد آباؤهم بتلقيها منهم وتساعدهم على الشعور بالرضا والسعادة.
- ما يحدث بين الكبار يختص بالكبار وبأنّ هناك أمورًا تبدو شيئًا ولكنها في حقيقتها هي شيء آخر يعرف الآباء تفاصيل يجهلها الأبناء.
- التركيز على أنّ الخلاف الذي يراه الأبناء هو جزء صغير من الحياة اليومية من علاقة الأبوين، وهو ليس كل الحياة وليس كل جوانب العلاقة.

هذا الكتاب...

يناقش هذا الكتاب الأدوار المبطّنة التي يتبنّاها الأبناء في الأسرة التي تعاني من مشاكل مزمنة، وهو موضوع مهم وغامض في آن، إذ يصعب على الآباء الالتفات إليه ما لم يكونوا على وعي ودراية به. وهو موجّه للآباء، ولكل من تقع على عاتقه تربية الأبناء وتنشئتهم. ومن يريد أن يكون مبادرًا يتقدم خطوة إلى الأمام لتكون له يد في صنع نتائج طيبة مرجوّة في حياة الأبناء. فهناك فرق كبير بين أن يقرر الأبوان أن يبنيا في أبنائهما مقومات الشخصية المتزنة السليمة، وبين أن يتركا الأمور لتأخذ مجراها كما تمضي بهم الظروف وأحداث الحياة، لتترك أثرها في نفوس الأبناء وتنعكس سلبًا على قراراتهم وشخصياتهم وسلوكياتهم، ليقوما بعد ذلك بدور المقيّم الذي ينتقد شخصية الأبناء وسلوكياتهم، ويبدأ بعدها بإلقاء الملامة على نفسيهما أو على الآخرين أو على الظروف.

يتضمن هذا الكتاب أمورًا دقيقة قد يكون بعضها صادمًا للقارئ، لذا فإنّه من المهم التوغل في مواضيعه من باب المحبة والاهتمام للأبناء، وليس من باب الغضب والبحث عن التقصير والمقصّر. فهناك تحديات في كل أسرة، ولا يوجد من هو كامل دون أخطاء، وتبنّي أسلوب إلقاء الملامة لا يخلق سوى ثقلٍ إضافي في القلب، وانعكاسٍ سلبي في العلاقات. ووحده القرار الواعي المؤدّي للتغير الإيجابي الذي يدور حول حفظ وتعزيز الرابط الأسري ما أمكن، وحده هو الطريق الأنجع الذي يساعد ويرتقي بالأبناء على المدى القريب في مراحل طفولتهم ومراهقتهم، وعلى المدى البعيد عندما يكبرون وينطلقون في حياتهم. فمستقبلهم المهني والاجتماعي والأسري وبصمتهم الكونية هي انعكاس للحياة التي يمنحها لهم أبواهم، أو الأفراد الذين تلقى على عاتقهم المسؤولية المباشرة لتنشئتهم.